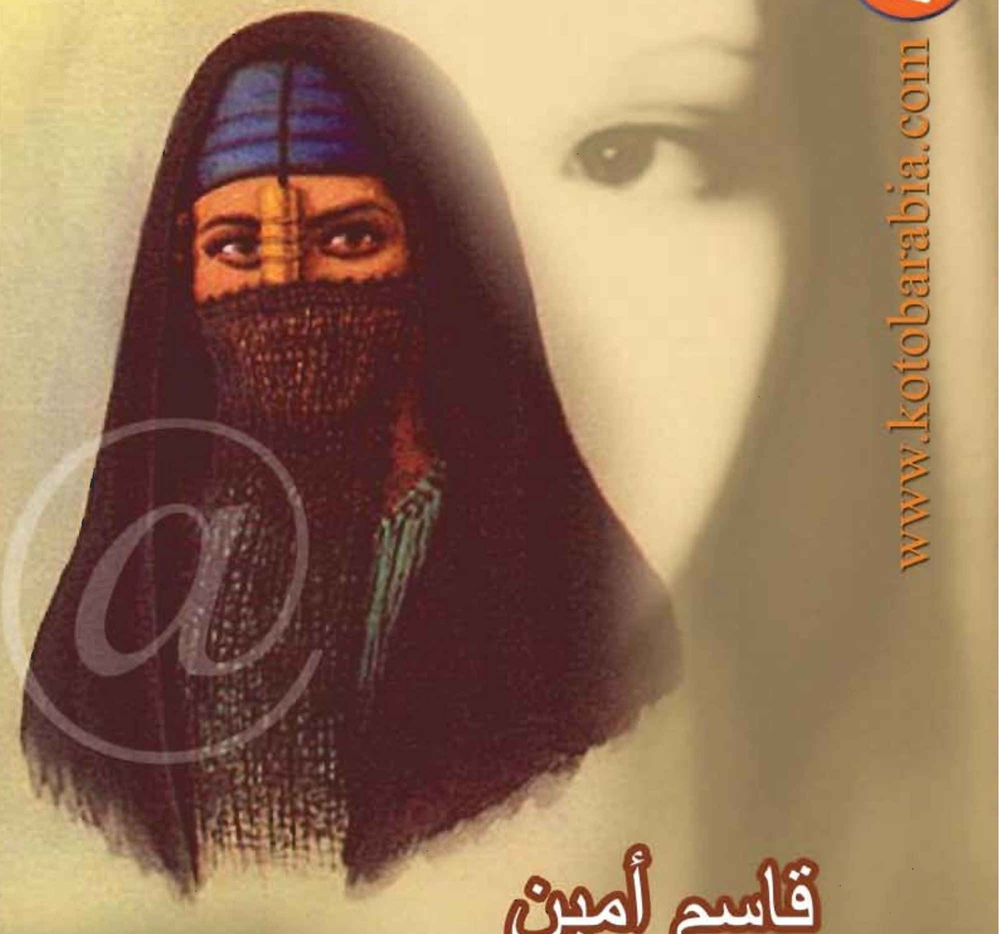
المرأة الجديدة



قاسم أمين

المرأة الجديدة

قاسم أمين

الإهداء

إلى صديقي سعد زغلول:

فيك وجدت قلبا يحب، وعقلا يفتكر، وإرادة تعمل.

أنت مثلت إلى المودة في أكمل أشكالها، فأدركـت أن الحياة ليست كلها شقاء، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعـرف قيمتها.

من هذا أمكنني أن أحكم أن هذه المودة تمنح سـاعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته.

ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني رجالا ونساء.

١٥ أغسطس سنة ١٩٠٠

قاسم أمين

فهرس

الإهداء.. ٣

مقدمة ٥

المرأة في حكم التاريخ ١٢

حرية المرأة.. ٣٧

الواجب على المرأة لنفسها......................... ٧٩

الواجب على المرأة لعائلتها........................ ١١٠

التربية والحجاب ١٥١

خاتمة.. ٢٠١

مقدمة

المرأة الجديدة: هي ثمرة من ثمرات التمدن الحـديث، بدأ ظهورها في الغرب على إثر الاكتشافات العلميـة التـي خلصت العقل الإنسـاني مـن سـلطة الأوهـام والظنـون والخرافات، وسلمته قيادة نفسه، ورسمت له الطريـق التـي يجب أن يسلكها. ذلك حيث أخذ العلم يبحث في كل شـيء، وينتقد كل رأي، ولا يسلم إلا إذا قام الدليل على ما فيه مـن المنفعة العامة. وانتهى به السعي إلى أن أبطل سلطة رجـال الكنيسة، وألغى امتيازات الأشراف، ووضع دستورا للملـوك والحكام، وأعتق الجنس الأسود من الرق، ثم أكمل عمله بأن نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التي يفضلون بها النساء، ولا يسمحون لهن بأن يساوينهم في كل شيء.

كان الأوربيون يرون رأينا اليـوم فـي النسـاء، وأن أمرهم مقصور على النقص في الدين والعقل، وأنهن لسن إلا عوامل الفتنة وحبائل الشـيطان، وكـانوا يقولـون: إن ذات الشعر الطويل والفكر القصير لم تخلق إلا لخدمـة الرجـل، وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقساوستهم يرون مـن العبث تعليمها وتربيتها، ويسخرون من المرأة التـي تتـرك

صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتـب العلـم، ويرمونهـا بالتطفل على ما كانوا يسمونه: خصائص الرجال.

فلما انكشفت عنهم غشاوة الجهل، ودخل حال المـرأة تحت انتقاد الباحثين، اكتشفوا أنهـم -هـم أنفسـهم- منشـأ انحطاطها وسبب فسادها، وعرفوا أن طبيعتها العقلية والأدبية للترقي كطبيعة الرجل، وشعروا أنها إنسان مثلهم، لها الحـق في أن تتمتع بحريتها، وتستخدم قواها وملكاتهـا، وأن مـن الخطأ حرمانها من الوسائل التي تمكنهم من الانتفاع منها.

ومن ذلك الحين، دخلت المرأة الغربية في طور جديد، وأخذت في تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئا فشيئا، ونالـت حقوقها واحدا بعد الآخر. واشتركت مع الرجال في شـئون الحياة البشرية، وشاركتهم في طلب العلـم فـي المدرسـة، وسماع الوعظ في الكنيسة. وجالستهم فـي منتـديات الأدب، وحضرت في الجمعيات العلمية، وساحت في الـبلاد، ولـم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عـالم الوجـود تلك –الأنثى– تلك الذات البهيمية التي كانت مغمورة بالزينة، متسربلة بالأزياء، منغمسة في اللهو، وظهر مكانهـا امـرأة

جديدة، هي المرأة شقيقة الرجل، وشريكة الـزوج، ومربيـة الأولاد، ومهذبة النوع.

هذا التحول هو كل ما نقصد.

غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلـى هذا المقام الرفيع، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمـال اللائق بصفته، فتمنح نصيبها من الرقي في العقـل والأدب، ومن سعادة الحال في المعيشة، وتحسن استعمال مالها مـن النفوذ في البيت.

إذا تم ذلك، فنحن على يقين لا يزعزعه أدنى شك من أن هذه الحركة الصغيرة تكون أكبر حادثة في تاريخ مصر.

إذا كان هذا هو اعتقادنا، فهل يصح أن يصـدنا عـن المثابرة في السعي إلى تحقيق آمالنا أن الجمهور من العامـة لم يلتفت إليه، أو أن بعض الكُتاب أظهروا السخط عليه، مـا بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا، وساخر يقضي عمره فـي السفاسف، ومغتر ينكر علينا حسن نيتنا.

نحن لا نكتب طمعا في أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين إذا سمعوا كلام الله، وهو الفصيح لفظه، الجلـي معناه، لا يفهمه إلا إذا جاء محرفا عن وضعه، منصرفا عن

قصده، برأي شيخ هو أجهل الناس بدينه! ولا يحبون الوطن إلا إذا تمثل لأعينهم في صورة قبيحة، وأخلاق رثة، وعادات سخيفة! وإنما نكتب لأجل العلم، وعلى الخصـوص للناشـئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل، فهي التي -بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة- يمكنها أن تحتل مسألة المرأة المكان الذي تستحقه من العناية والبحث.

لم نر هذه الدفعة حاجة إلى التكلم على الحجـاب مـن الجهة الدينية؛ فإن ما أوردناه في كتاب (تحرير المرأة) مـن النصوص القرآنية، صريح في إباحة كشف الوجه واليـدين، ومعاملة النساء للرجال، وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم. أما أن فريقا آخر مـن الفقهـاء استحسن التشديد في الحجاب، فهـذا رأي لا يلزمنـا الـدين باتباعه.

وإذا كان في هذه المسألة قولان، فمـن الصـواب أن يرجح القول الموافق للحرية الإنسانية وللمصلحة العامة.

وقد كتب صاحب مجلة (المنار) [1] كلمة في الحجاب نوردها هنا تأييدا لرأينا. قال:

"وأما الأمر الثالث، وهو حكم الشرع في هذه المكالمة، فالمعروف أن الشرع إنما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية، وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال، وحديثهم معهم في الملأ دون الخلوة، وكفاك أن نساء النبي ﷺ -وهن اللاتي أُمرن بالمبالغة في الحجاب- كن يحدثن الرجال، حتى إن السيدة عائشة كانت قائدة عسكر، ومديرة له في وقعة الجمل المعروفة، وما إخال أن مكابرا يقول إنها لم تكن تكلّم أحدا منهم إلا ذا محرم".

هذا هو رأي رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين، ولو كان أهل الأزهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلا من اشتغالهم بالألفاظ والتراكيب النحوية واللغوية، لما اختلفوا معنا في شيء مما قلناه.

---

[1] هو الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥م) كاتب إسلامي سلفي، جعل من مجلته وقلمه وسائط بين فكر الإمام محمد عبده، وبين جمهور القراء؛ ولذلك كانت أهم إنجازاته هي الحفاظ على آثار الأستاذ الإمام، وكتابة تاريخه، ولقد تميز منهجه السلفي المحافظ عن منهج محمد عبده العقلاني، خاصة بعد وفاة الأخير سنة ١٩٠٥م.

ومن العيب أن الجرائد وأصحاب الأفكار يرمون -كل يوم- علماء الدين الإسلامي بأنهم السبب في انحطاط وتأخر الأمم الإسلامية عن سواها في المدنية، ويصفونهم بالتساهل في فهم الدين، وعدم مراعاة أحكامه، ثم إذا تحركت غيرة لعرض رأي يظن أن فيه خيرا للأمة، تحولت أنظارهم إلى هؤلاء العلماء، واستفتوهم عن رأيهم فيه. وغاب عنهم أن الذين يحاربون الإصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم في تهذيب عقل أو استكمال أدب، أو تقويم عمل، ولم يقبلوا تدريس علمي الجغرافيا والتاريخ، إلا رغم أنفهم ليس لهم مقام -لا من العلم ولا من الدين- يسمح لهم بإبداء رأي في شأن من شئون الأمة، فضلا عن مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشري.

والمطّلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التي يحق لها أن تفخر بها على سواها؛ لأنها منحت المرأة من اثنى عشر قرنا مضت- الحقوقَ التي لم تنلها المرأة الغربية إلا في هذا القرن وبعض القرن الذي سبق؛ حتى إنها لا تزال محرومة من بعض الحقوق، وهي الآن مشتغلة بالمطالبة بها.

فإذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية في تدبير ثروتها والتصرف فيها، وحثت على تعليمها وتهذيبها، ولـم تحجر عليها الاحتراف بأية صنعة، أو الاشتغال بأي عمـل، وبالغت في المساواة بينها وبين الرجل إلى حد أن أباحت لها أن تكون وصية على الرجل، وأن تتـولى وظيفـة الإفتـاء والقضاء، أي: وظيفة الحكم بين الناس بالعدل، وقد ولى عمر -رضي الله عنه- على أسواق المدينة نسـاء، مـع وجـود الرجال من الصحابة وغيرهم، مع أن القوانين الفرنسية لـم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة، إلا فـي العـام الماضي.

إذا كانت شريعتنا تحامي عن المرأة إلى هذا الحد، وتمنحها هذه الدرجة من الحرية، فهل يجدر بنا -في هذا العصر- أن نغفل مقاصد شرعنا، ونهمل الوسائل التي تؤهل المرأة إلـى استعمال هذه الحقوق النفسية، ونضيع وقتنا فـي مناقشـات نظرية لا تنتج إلا تعويقنا عن التقدم فـي طريـق إصـلاح أحوالنا؟

لا أظن أن ذلك يليق بنا، وأرجو أن كثيرا من القـراء يرون مثل رأينا.

المرأة في حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم إلا بعد معرفة حالها في الماضي.. تلك هي قاعدة البحث في المسائل الاجتماعية، فإننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالنا في أي شأن من شئوننا، إلا بعد استقراء الحوادث الماضية والإلمام بالأدوار التي تقلبت فيها، وبعبارة أخرى: يلزم أن نعرف من أية نقطة ابتدأنا؛ حتى نعلم إلى أية نقطة نصل؟

ذكر شيخ المؤرخين (هيروديت) [1] أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة إلى الصدفة. ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام. وكان الشأن إذا ولدت المرأة ولدا أن يجتمع القوم متى وصل الولد إلى سن البلوغ، وينسبوه إلى أشبه الناس به. وهذه العادة كانت معروفة –أيضا- عند القبائل الجرمانية وعند العرب في الجاهلية.

وقد جاءت روايات السياح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ؛ فإن جميع السياح الذين طافوا بلاد (تايتي)

---

[1] هو الملقب بأبي التاريخ، عاش ما بين سنتي ٢٨٤ و ٤٢٥ ق م وسجل تاريخ الصراع بين الفرس والإغريق، وزار عددا من البلاد، من بينها مصر. وكتب عن مشاهداته وما سمعه من طرائف وأساطير.

وجزائر (مركيز) وغيرهما مـن أقـاليم أسـتراليا وزيلنـدا الجديدة، وبعض بلاد الهند وأفريقيا، ذكروا أن الزواج غيـر معروف في تلك البلاد.

ولا خلاف في أن المرأة التي هـذه حالهـا، تعـيش مستقلة، تعول نفسها بنفسها، مسـاوية للرجـل فـي جميـع الأعمال، بل لها من المزية عليه أن نسب الأولاد في الغالب بها وحدها، فالمرأة في هذا الدور الأول هي ذات الشأن فـي الهيئة الاجتماعية، وربما كانت تشترك في الدفاع عن قبيلتها مع الرجال، ويدل على ذلك ذكـر وقـائع الفارسـات فـي التواريخ القديمة، ووجود عادة منتشرة إلى الآن في بعـض البلاد، تقضي بتجنيد النساء كما تجند الرجـال، ومـن هـذا القبيل أن ملك (سيام) كان له عدد من النسـاء عهـد إلـيهن بحراسته، وكان الملك (الداهومية بها نزن) الـذي اسـتولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين، خمسمائة جندي من الرجال وخمسمائة من النساء.

ولما ودع الإنسان بداوته، واتخذ وطنا قارا، واشـتغل بالزراعة وجد نظام البيت، ومن أهم ما ساعد على تشـكيل العائلة، أنه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بـين

أسلافها، كما كان جاريا عند اليونـان والرومـان والهنـود والجرمانيين، وكما هو جار إلى الآن عند الأمم المتوحشـة، وله بقية في بلاد الصين، وكانت العائلة تقدم القربـان إلـى آلهتها، فكان هذا باعثا للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأديـة الخدمات الدينية.

وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانهـا مـن استقلالها؛ لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونـان والرومـان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشـراء، بمعنـى أن عقـد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء، وهذا أمر يعلمه كل مطلع على القانون الروماني، وذكره المؤرخـون، ورواه السياح المعاصرون لنا، يشتري الرجل زوجتـه مـن أبيهـا فتنتقل إليه جميع حقوق الأب عليها. ويجوز له أن يتصـرف فيها بالبيع لشخص آخر. فإذا مات انتقلت مع تركتـه إلـى ورثته من أولادها الذكور أو غيرهم.

ومما يتبع هذه الحال أن المرأة لا تملك شيئا لنفسها ولا ترث وإن يتزوج الرجل بعدة نساء؛ لأن الوحدة في الـزواج تفرض المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات.

ثم خفت صولة الرجل علـى المـرأة نوعـا بتـأثير الحكومة، فردت إليها حق الملك كله أو بعضه، وحق الإرث تاما أو ناقصا على حسب الشرائع، ولكن حمايـة الحكومـة للمرأة لم تبلغ في أي بلد من البلاد إلى حد أنها سـوت بـين الرجل والمرأة في الحقوق، فالمرأة في الهند كانت مجـردة عن شخصيتها الشرعية، وعند اليونان كانت النساء مكلفـات بأن يعشن في الحجاب التام. ولا يخرجن من بيوتهم إلا عند الضرورة، وعند الرومان كانت المرأة في حكم القاصر، وفي مبدأ تاريخ أوربا عندما كانت خاضعة إلى سـلطة الكنيسـة والقانون الروماني، كانت في أسوأ حال، حتـى إن بعـض رجال الدين أنكروا أن لها روحا خالـدة، وعرضـت هـذه المسألة على المجمع الذي انعقد في (ماون) في سـنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة أن المرأة إنسان، ولكنها خلقت لخدمة الرجل.

وكان من الضروري أن تعيش تحت قوامة رجل وهو أبوها قبل زوجها، ثم زوجها بعد الزواج، وأحـد أبنائهـا إذا مات الزوج، وأحد أقاربها من الذكور أو أقارب زوجها إن لم يكن لها أولاد، ولا يجوز لها في أيـة حـال أن تتصـرف

بنفسها، وكانت غير أهل للشهادة في العقود، ولا للوصاية على أولادها القصر، ولا لأن تكون حكما أو أهل خبرة، وشوهد في بعض ولايات سويسرا أن شهادة امرأتين تساوي شهادة رجل واحد، ولا تزال آثار هذه الأحكام باقية إلى الآن في كثير من مماليك أوربا؛ ذلك لأن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة. والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها.

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو أول حكومة سياسية ظهرت في العالم، وقد اضمحل ثم زال بعد أن أقام أجيالًا في البلاد الغربية، وحل محله النظام الدستوري المؤسس على أن الحاكم ليس له حق على الأشخاص ولا على الأموال إلا ما تفرضه القوانين.

ولكنه لا يزال سائدا في الشرق بعامة، حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين إلى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين.

وليس هنا محل البحث عن الأسباب التي وقفت بهـذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذي حرمها الترقي في المدنية، وحصر حركاتها في مدار واحد بدون أن تنتقل من مكانها، وإنما يهمنـا هنـا أن نثبت أمرا يتعلق بموضوعنا وهو:

وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فـي كل بلد؛ ففي كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة، وعاملها معاملة الرقيق حط نفسه وأفقدها وجدان الحرية. وبالعكس في البلاد التي تتمتع فيها النساء بحـريتهن الشخصـية، يتمتـع الرجال بحريتهم السياسية، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا.

وآن لسائل أن يسأل: أي الحالتين أثرت في الأخـرى؟ نقول: إنهما متفاعلتان، وإن لكل منهما تأثيرا فـي مقابلتهـا. وبعبارة أخرى: إن شكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية.

انظر إلى البلاد الشرقية، تجـد أن المـرأة فـي رق الرجل، والرجل في رق الحاكم، فهو ظالم في بيته مظلوم إذا خرج منه.

ثم انظر إلى البلاد الأوربية تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية، فارتفع شأن النسـاء فيها إلى درجة عالية من اعتبار وحرية الفكر والعمـل، وإن كن لم يصلن إلى الآن إلى مستوى ما أعدلهن، ثم انتقل إلـى بلاد أمريكا؛ تجد الرجال مستقلين فـي معيشـتهم الخاصـة استقلالًا تاما، وأن سلطة الحكومة وتداخلها في شئون الأفراد يكادان أن يكونا معدومين؛ ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هي في أوروبا بكثير، حيث تساوى المرأة والرجل من البلاد الأمريكية في جميع الحقوق الشخصية، وفـي بعـض تلـك الولايات تمت المساواة بينهما أيضا في الحقوق السياسية.

ففي ولاية (بومنج) نالـت النسـاء حـق الانتخابـات السياسية من سنة ١٨٦٩.. وإنـي أنقـل هنـا رأي رئـيس حكومتها (المسيو شامبل) الذي جاهر به في خطبة ألقاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال:

"مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملن حقوقهن السياسية، فينتخبن نواب الأمة وينُبن بأنفسهن عنها، ويجلسن في مراكز القضاء، ويؤدين ما دون ذلـك مـن الوظـائف العمومية، ومن العدل أن النساء قد قمـن بهـذه الواجبـات

الجديدة على وجه من الرزانة وحصافة الرأي وسلامة الذوق لا ينقص عما يقوم به الرجال. وهذه التجربة بالنسبة لقصـر مدتها لا تصلح أن تكون دليلا مقنعا لإثبات استعداد المـرأة في القيام بمهام الحكومة، لكنها تحمل على حسن الظن بفطرة المرأة. وما دام الحال على هذا المنوال، فلهـن الحـق فـي الاستمرار".

وبعد تجربة أخرى مدة أربـع سـنين قـال الـرئيس المذكور:

"مضى اليوم ست سنين ونحن نجـرب النسـاء فـي استعمال حقوقهن السياسية، وقد أعلنت رأيـي فـي جلسـة سابقة.،وصرحت بالفوائد التي أظهرتها التجربة، والآن أقول: إن ما شاهدته في هذه الست أقنعني إقناعا تاما بأننا أصبنا في تخويل النساء حق الانتخاب. وأن مساواة المرأة للرجل فـي الحقوق السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحا لا يمـاري فيـه أحد.

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخـر للحكومـة وهـو الجنرال (طاير). وقد انتخب من بين أعضاء مجلس شـيوخ الولايات المتحدة. فخطب قائلا:

" لقد مضى ثماني سنين والنساء يتمتعن فـي أرضـنا بالحقوق السياسية، وكل يوم يمر يزيد الأهالي ثقة بالنسـاء، وفي رأيي أن هذه نتيجة حسنة؛ لأنها موافقة لمصالح أمتنا).

ثم بعد ذلك بخمس سنين في ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى: (جون هويت) بما هو آت:

إن ولاية (يومنج) هي المكان الوحيد الذي تتمتع فيـه النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا فرق بين الصنفين، وهذا الإقدام من أمتنا، التي أرشدها حـب الحـق والعدل إلى إصلاح خطأ طال عليه الزمن، قد وجه أنظـار العالم إلينا، ولئن زعم أخصـامنا أننـا لا نـزال فـي دور التجربة، فكلنا يعلم أن هذا الدور قد انقضى بالنسبة لنا. وإني أصرح هنا بأن اشتراك النساء في أعمـال الحكومـة مـع الرجال، ترتب عليه أن القوانين عندنا أصبحت أحسن ممـا كانت عليه، وأن عدد الموظفين الأكفاء وصل إلى درجة لـم نعهدها من قبل، وأن حالتنا الاجتماعية ارتقت كثيرا، وهـي الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الأخرى، وأن جميع المصائب التي كنا نهدد بحلولها، مثـل فقـد النسـاء رقـة الطبـع،

واضطراب النظام في معيشتنا المنزلية، لم نر لها أثرا إلا في مخيلات خصومنا.

إن السواد الأعظم من نسائنا قدرن حقـوقهن الجديـدة حق قدرها، واعتبرن القيام بها واجبا وطنيا، وبالجملة فـإني أقول: إن تجربة اثنتي عشرة سنة مع النجـاح البـاهر، قـد مكنت في عقولنا ونفوسنا أن مساواة المرأة للرجل لا يرتاب فيه.

وكل هذه المقدمات تنساق إلى طلب الكمال في حالتنـا الاجتماعية؛ حتى نجعل ولاية (بومنج) نجما يهتدي به العالم في الحركة العظيمة التي تصعد بالإنسان ذروة الحرية).

وليس على أن أضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام إلا أن قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولا بـه إلـى الآن فـي (بومنج)، وأن ثلاث ولايات أمريكية قد حـذت حـذو تلـك الولاية، وخولت النساء الحقوق السياسية، وهي ولاية (آوته) و (كولورادوا) و(إيداهو).

أما في باقي ولايات أمريكا، فالمرأة لم تنل إلـى الآن حقوقها السياسية، لكن كل مطلع على حركة الرأي العام فيها

لا يشك أنها ستنال هذه الحقوق في زمن قريب جدا. وإليك رأي رجلين من أكبر رجالها السياسيين.

قال (سميلون) العضو في مجلس شيوخ الولايات المتحدة: " إني أعتقد أن انتشار الفسق في مدننا الكبيرة، لا يمكن أن يضيق نطاقه إلا إذا منحت النساء حق الانتخاب".

ومن رأي (جيلبير هافيه) وهو أيضا من أعضاء مجلس الشيوخ: " أن فساد الأخلاق السياسية لا يصلحه إلا اشتراك النساء في الانتخابات؛ لأننا نعلم أن الخمارة هي مجلس البلدية ومركز الانتخابات؛ وما ذلك إلا لأن الخمارة هي المحل الوحيد الذي لا تدخل فيه المرأة".

لعل القارئ يستغرب كيف أن الرجال في أمريكا يرون أن لا سبيل إلى محاربة الفسق وفساد الأخلاق إلا بمعرفة النساء. هذا أمر يحتاج إلى البيان؛ ولذلك أنقل هنا رأي القاضي الأمريكاني (جون لينجمان) وقد نشر في سنة ١٨٨٢ في أهم جرائد أوروبا قال:

" كان الرجال قبل اشتراك النساء في الوظائف العمومية إذا اجتمعوا في مكان واحد لا يخلو جيب واحد منهم من مسدس، فإذا قام نزاع خفيف بين بعض الحاضرين، لم

يكن ينتهي عادة إلا بقتل أو جرح، وكان المحلفون يحكمـون في الغالب ببراءة الجانين، فلما اشتركت النساء في الوظائف القضائية مع الرجال، نتج عن ذلك معاقبة المذنبين، وكـذلك كان المحلفون لا يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار، فتغير الحال الآن، وقد ترتب على حضور النساء في الجلسات اننا نرى الآن قاعدتها متحلية من النظام والأدب والوقار بـأكثر هما مما كان يعرف فيها من قبل.

ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظـائف العموميـة أنهن أهملن ما يجب عليهن في منازلهن، ولـم يصـل إلـى علمي أن زوجا اشتكى زوجته بسبب اشتغالها عن مصـالح منزلها بالمصالح العامة، ولم أر شقاقا بين زوجـين بسـبب اختلاف آرائهما السياسية ولم أسمع به، على أني أعرف عدة عائلات ينتمي فيها الزوج إلى حزب، والزوجة إلى حـزب آخر".

على أن المرأة الأمريكية منحت في جميـع الولايـات المتحدة حظًا عظيما من الحقوق العمومية؛ فلها أن تحتـرف بحرفة المحاماة، وتترافع أمام جميع المحاكم. يوجد قضاة من النساء في ولايات (كانسـاس) و(بـومنج) و(كولمبيـه) و

(شيلي) و(زيلندا) وغيرها، وعين بعض أفرادهن في وظيفة نائب عمومي. ويوجد عدد عظيم منهن في نظارات الخارجية والداخلية والحربية.

أما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقـود الرسـمية. والنسـاء القسيسـات. والمهندسـات ومـديرات الجرائـد، والمستخدمات في الرصد خانات والبوسطة، والتلغرافات، فلا يكاد يحصى.

وتشغل النساء أغلب الوظائف في إدارة المعارف. فقد بلغ عددهن خمسا وتسعين في المائة من المدارس الابتدائية. قال (بول بورجيه) [1] الكاتب الفرنساوي الشهير في كتـاب (حديث ألف) عقب زيارته أمريكا في وصف حال نسائها ما يأتي:

" إذا زرت مدرسة عمومية، وجدت البنات يدرسن مع الصبيان في مكان واحد، والأستاذ الذي يلقي الدرس رجلا أو امرأة بلا فرق، وإذا دخلت في معمل علمي وجـدت بنـات محنيات الرءوس على آلة الميكروسكوب، وبجانبهن شـبان

---

[1] روائى فرنسى (١٨٥٢ – ١٩٣٥م) كان من اتباع المدرسة الطبيعية في الأدب، ثم خرج عليها واعتنق المذهب الكاثوليكى، فغلبت الروح الدينية على رواياته .

من طلبة العلم، الكل مشتغل بفحص مسألة من علم التشريح، ويزورك أحد مكاتبي الجرائد من غير أن يسمي نفسه، فتجد أنه امرأة، وتروم استدعاء أحد الأطباء المشـهورين، فتجـد عدد الأطباء من النساء مساويا لعدد الأطباء من الرجال، وإن لم يكن مساويا في بعض الجهات، فهو من الكثرة بحيـث لا يعد التطبيب منهن من قبيل النادر".

ويكفي لبيان ارتقاء شأن المرأة الأمريكية أن تقول: إنه تبين من الإحصائية التي عملت في سنة ١٨٨٠ أن النسـاء المحترفات بالعلوم والأديبات فقط بلغ عددهن خمسا وسبعين في المائة، و ٦٣ في المائة في التجارة، و ٦٢ في المائة في الصناعة.

فإذا انتقلنا من أمريكا إلى إنجلترا، وهي أقرب الأمـم إليها، وجدنا أن اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريبا عما يشاهد في أمريكا، فقد نتج من إحصـائيتها الأخيـرة أن مليونا منهن يشتغلن بـالعلوم والأديبـات، وثلاثـة ملايـين بالتجارة والصناعة.

وللنساء الإنجليزيات حتى الانتخاب في المجالس البلدية وفي مجتمعات المعارف، والجمعيات الخيريـة، ولـم يفـت

النساء التمتع بهذه المزايا حتى في المستعمرات الإنجليزية "كالكاب) و "كندا" و "أستراليا".

أما مسألة منحهن الحقوق السياسية، فهي لا تزال في دور التحضير، وأول طلب تقدم من النساء الإنجليزيات إلى مجلس النواب كان في سنة ١٧٦٦، وأمضى عليه ستمائة ألف امرأة، وأول مشروع تقدم إلى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان في سنة ٦٧ [1] وكان من حسن حظه أن العلامة "استيوارت ميل"[2] هو الذي أخذ على نفسه المدافعة عنه أمام المجلس. فاكتسب في الحال ثمانين صوتا من النواب. كما أذكر بينهم (ديزرائيلي)[3] و "غلادستون"[4]

---

[1] أي: سنة ١٨٦٧م.

[2] هو الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل (١٨٠٦ – ١٨٧٣م) صاحب الفلسفة التجريبية والمنطق الاستقرائي. أصدر في سنة ١٨٤٨ م كتابه (مبادئ الاقتصاد السياسي) كما اشتهر بأفكاره عن حرية المرأة ومذاهب المنفعة، والحرية.

[3] بنيامين أيرل بيكنسفيلد (٨٠٤ – ١٨٨١م) سياسي إنجليزي. من أصل يهودي. تزعم حزب المحافظين وتولى رئاسة الحكومة، ولعب دورا هاما في سياسة بريطانيا الاستعمارية. كما كان مؤلفا كذلك.

[4] وليم إيوارت (١٨٠٩ – ١٨٩٨م). من الساسة الإنجليز في القرن الماضي، تزعم حزب الأجور، ووصل إلى رئاسة الوزارة.

وفي سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانيا ونال ١٥٩ صوتا، وفي سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتا، وما زال يتقدم من حين إلى حين، ويكسب أصواتا جديدة حتى توفرت له الأغلبية في سنة ٩٧ فأقر عليه مجلس النواب، ولم يبق لنفاذه إلا تصديق مجلس الأعيان.

وفي فرنسا لم تصل حركة الأفكار في شأن النساء إلى هذا الحد، فعدد المشتغلات من النساء بممارسة العلوم قليل، وعدد الموظفات في المصالح الأميرية يكاد يكون محصورا في مصلحة البوسطة والتلغراف والتليفون، والحرفة التي اتجهت إليها على الخصوص نساء فرنسا هي التجارة، وقد خاب ظن "فيكتور هيجو"[1] أكبر شعراء العصر في فرنسا الذي قال: "إن القرن الثامن عشر قرر حقوق الرجال، وسيقرر القرن التاسع عشر حقوق النساء" حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شيء كبير من الإصلاحات التي يطالب بها كثير من رجال فرنسا، غير أنه في هذه السنين العشر الأخيرة حصل تخدم محسوس في حركة الأفكار

---

[1] فيكتور هوجو (١٨٠٢م) أشهر أدباء فرنسا في عصره، وهو شاعر وروائي كاتب مسرحي، وأعظم رواياته رواية البؤساء.

الفرنساوية، انتهى بنيل النساء حق الانتخاب فـي المجـالس التجارية، وفي العام الماضي صدر القانون الذي يخول النساء الاحتراف بصنعة المحاماة.

وحال النساء في الممالك الأوربية الأخرى لا يختلـف إلا قليلا عن حال النساء في فرنسا.

أما مملكة روسيا، فمركزها الجغرافي قضى بأن تتأثر بالعادات الشرقية؛ ولهذا فقد عاش نساؤها من أهـل الطبقـة العالية والطبقة الوسطى محجوبات كنساء الشرق، مسجونات في البيوت، محرومات من التربية والتعليم، وليس لهن مـن الحقوق إلا ما تسمح به رحمة أزواجهن وأوليائهن، ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية إلا في سنة ١٧٢٦ حيث صدر أمر عال من "بطرس الأكبر" [1] بإلغاء الحجاب مرة واحدة، ثم توالت بعده الإمبراطـورة "كـاترين"[2] فتممـت عملـه

---

[1] بطرس الأكبر (١٦٧٢ – ١٧٢٥م) هو بطرس الأول قيصر روسـيا ومؤسـس دولتها الحديثة الذي أدخل فيها نمط التمدن الغربي. وبدأ فيها عصر الصناعة.

[2] كاترين الثانية، أو كـاترين العظمـى (١٧٢٩ – ١٧٩٦م) إمبراطـورة روسـيا وقيصرتها. لعبت دورا بارزا في سياسة روسيا التوسعية والاستعمارية فـي القـرن الثامن عشر.

واشتغلت من سنة ١٧٦٢ إلـى ١٧٩٧ بتأسـيس المـدارس للبنات، ونشرت بينهن التربية العقلية والأدبية.

ولكن لما تولى الملك ألكسندر الأول[1] وكان يـبغض الحرية، وقفت هذه الحركة حتـى تـولى الملـك ألكسـندر الثاني[2]، وكان ميالا إلى ترقية بلاده، محبا لتقدمها، فأبطـل استعباد الرجال (السرفاج) وأنشأ مـدارس كثيـرة للبنـات للتعليمين الابتدائى والثانوي كن يتعلمن فيهـا العلـوم التـي يتعلمها الذكور، وأول مدرسة أنشئت على هذا النمط كانـت في سنة ١٨٥٧، ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمـة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية أن تقدم النساء فـي المعارف له أثر كبير في حالة الأمة السياسـية، وأن حـزب المعارضين للحكومة أخذ ينمو، فأقفلت في سنة ١٨٦٢ أبواب

---

[1] ألكسندر الأول (١٧٧٧ – ١٨٢٥م) حكم القيصرية الروسية من سنة ١٨٠١ حتى سنة ١٨٥٢م.

[2] ألكسندر الثاني (١٨١٨ – ١٨٨١م) حكم روسيا مـن سـنة ١٨٥٥ حتـى سـنة ١٨٨١م.

المدارس العالية في وجوه الرجال والنساء، ولكن النساء لم يقبلن أن ينتكسن في الجهل بعد أن ذقن طعم الحرية والعلم. فرحل الكثير منهن عن وطنه طلبا للمعارف، وأخذن يهاجرن إلى فرنسا وسويسرا وألمانيا لتحصيلها، وطفقن في مهاجرهن يطعن في الحكومة وينشرن أفكارهن في الكتب والجرائد، ويشتركن في المؤتمرات مع الرجال، فكانت عاقبة إقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل. فطنت الحكومة إلى هذا الأمر، وعرفت أنها أخطأت، فقررت في ١٨٨٩ إعادة تلك المدارس، وقد زاد عددها من ذلك العهد إلى الآن زيادة ظاهرة.

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة في العالم. نلخصه في كلمتين:

عاشت المرأة حرة في العصور الأولى، حيث كانت الإنسانية لم تزل في مهدها.

ثم بعد تشكيل العائلة، وقعت في الاستعباد الحقيقي.

ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق، واعترف للمرأة بشيء من الحق، ولكن

خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها بألا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها.

ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية، نالت المـرأة حريتها التامة، وتساوت المرأة والرجل في جميع الحقوق، أو على الأقل في معظمها.

أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن في العالم.

فالمرأة المصرية هي اليوم في الدور الثالث من حياتها التاريخية، بمعنى أنها في نظر الشرع إنسان حر، له حقوق، وعليه واجبات، ولكنها في نظر رئيس العائلة وفي معاملتـه لها ليست بحرة، بل محرومة من التمتع بحقوقها الشـرعية، وهذه الحال التي عليها المرأة اليوم هي من توابع الاسـتبداد السياسي الذي يخضعنا ونخضع له.

ومع أن الاستبداد السياسي أصبح في حالـة النـزع، وأشرف على الفوات، بحيث لا ترجى له عـودة، لا يـزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم.

وما سبب ذلك إلا أن قوانيننا السياسية قد ارتقت قبـل أن نرتقي، وسبقتنا إلى ما لم نصل إليه بعد، فهي تقـرر أن

كل فرد منا له أن يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية، لا فـرق في ذلك بين الذكر والأنثى، ونحن معاشر الرجال لـم يـزل راسخا في طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احتـرام حقوق النساء.

وهذا يدل على أن سلطان الأخلاق القديمـة لا يـزال نافذا في نفوسنا، وله أثر ظاهر في أعمالنا، فقوانيننا وضعت لأمة حرة، وأخلاقنا لا تزال أخلاق أمة مسترقة؛ لهذا نـرى رجالا وردوا موارد العلم، وتنقلوا من مدرسة إلى مدرسـة، ومن درجة إلى درجة، حتى حازوا على لقب علمي، وفقهاء يعلمون الحقوق، وشعراء من نوابغ العصر، على ما يقـول العارفون بفنهم، وكتابا نصبوا أنفسهم لإفادة النـاس بجرائـد تلقب بالعلمية، أو الأدبية، أو الفنية، أو ما شئت مـن هـذه الألقاب، وخطباء مشهورين يحبون الحرية والاستقلال.

رأينا جميع من ذكرنا وعندما سمعوا القول بأن للمرأة حقًـا مهضوما، وأنها إنسان محروم، وأخذوا يتساءلون: هل يسوغ لها أن تخرج من سجنها؟ أو يرفع عنها غطاء من جهلهـا؟ وبعد طول التساؤل رجعوا إلى ما هو مركوز في طبـاعهم

فأنكروا عليها هذا الحق، وحكموا عليها بأن تبقى في ظلمات الجهل وفي السجن المؤبد؟

فهل كان ذلك لأن المسألة عويصة تحتاج إلى العنـاء في حلها، وتقبل اختلاف الآراء فيها؟ كلا، وإنما نحن نتصور الحرية، ولا نشعر في الحقيقة بحبها، ونعرف حق الغير ولا نجد من أنفسنا احتراما له. نحن في دور التمرين على العمل بالأخلاق الحرة، ونحتاج إلى زمن لترسخ في نفوسـنا، أمـا الأوربيون، فإنهم يقدرون الحرية حـق قـدرها، ويحبونهـا ويحترمونها في غيرهم، كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها في أنفسهم.

وهذا شأن من له إحساس حقيقي بمزية فضـيلة مـن الفضائل. فإنما الفاضل من يجل الفضيلة أينما كان مظهرها، قال "كوندوروسيه"[1] ، الأصولي الشهير في هذا المعنى: أما أن لا يكون حق حقيقي لأحد من الناس، وأما أن يكون لكـل فرد حق مساو لحق الآخر، ومن جرد غيره من حقه مهمـا كان دينه أو لونه أو صنفه، فقد داس بقدميه حق نفسه.

[1] ماري جان أنطوان كوندوروسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤م). فيلسوف ورياضي فرنسي، اشترك في الثورة الفرنسية. ثم اختلف مع بعض قادتها، وألف كتابا هاما عن التقـدم الإنساني، حتى الثورة الفرنسية.

لهذا يشتغل محبو الترقي في أوربا لتحسين حال المرأة وإيصالها من الكمال فوق ما وصلت إليه الآن، وآلوا على أنفسهم أن يجاهدوا في هذا السبيل؛ حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال، فيساوينهم في جميع الحقوق الإنسانية.

ولا أنكر أن عددا غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل في صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين.

فهناك مذهبان يتزاحمان:

أحدهما: يكتفي بما وصلت إليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق.

والثاني: يطلب الازدياد فيها؛ حتى لا يبقى فرق بين الصنفين.

هكذا انقسم العالم الإنساني في كل إلى فريقين: فريق المحافظين، وفريق المصلحين، كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع، ولكنهما يختلفان في طريق الخير وسبل السعادة.

ومن تتبع سلسلة التاريخ في جميع الأزمان يعلم علم اليقين أن المرأة في كل زمان وفي كل مكان قائمة بوظيفتها الطبيعية، ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد إلى ضروب

من الكمال، وإنها سارت وتسير في طريق الكمال التدريجي متنقلة من منزلة إلى أرقى منها، ومن مرتبة إلى أرفع منها.

فالقول بلزوم بقائها على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التي قضت بتغير حالها في الماضي، وتهيئتها الآن للانتقال من طورها الحالي إلى طور آخر.

وبالجملة فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشؤه أن الغربيين فهموا طبيعة الإنسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا أنفسهم من الحقوق في جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة، ولم ينازعها أحد منهم في حق التمتع بحريتها في الأعمال البدنية والعقلية، إلا ما حرمته الآداب. وسووا بينها وبين الرجل في كل ذلك، وإنما اختلفوا في مسألة مساواتها بالرجل في الحياة العامة؛ فيرى بعضهم أن اشتغالها بالأعمال يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية، ويرى البعض الآخر أن هذه الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها، ولا تشغل كل امرأة، فقرروا المساواة بينها وبين الرجال أيضا فيما يتعلق بالحياة العامة.

أما نحن فإننا لا ننظر إلى المرأة نظرنا إلى الرجـل، ولم تستعد عقولنا إلى إدراك هذه الحقيقة الظاهرة وهـي أن المرأة إنسان مثل الرجل، فجردناها عن استعمال جميع حقوق الإنسان، وحرمانها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامـة، أما اشتغال المرأة بالأعمال العامة، فهو مما لا يدخل تحـت مطالبتنا في هذا الكتاب؛ ولهذا لا نرى فائدة في الكلام فيـه، وأما ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة، فهو الذي نقصد البحث فيه، وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل:

الأولى: حرية المرأة.

الثانية: الواجب على المرأة لنفسها.

الثالثة: الواجب على المرأة لعائلتها.

وسنتكلم عليها على هذا الترتيب، ويلي ذلك مبحث في التربية والحجاب، ثم خاتمة تحتوي على حالة الأفكـار الآن في مصر بالنسبة للنساء.

حرية المرأة

لم يخطئ قدماء الفلاسفة[1] في مسألة خطئهم في معنى الحرية الإنسانية؛ وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله خلق الناس على قسمين: قسم ميزه بالحرية، والقسم الآخر قضى عليـه بالرق.

وكانت معيشة الأحرار بعيدة عن الاستقلال، ومتـأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة.

والتاريخ يحدثنا بأن الحكومة في تلك الأعصر الخالية كانت تتداخل في كل ما يتعلق بالحياة الخاصة، وكـان لهـا الشأن الأول في نظام العائلة، والتربية، والديانة، والأخـلاق والعواطف؛ حتى إنها كانت تحدد في المعـاملات التجاريـة أثمان البضائع، وقد وصلت بها الأثرة بالتداخل فـي شـئون الحياة الخاصة، إلى حد أن قوانين اليونـان القديمـة كانـت تحجر على النساء الخروج من منازلهن إلا في أحوال مبينة، فكانت المعيشة الاجتماعية هي أشبه شيء بالعيشة العسكرية،

---

[1] المراد هنا فلاسفة اليونان، ولقد جاء فكرهم عن الحرية على هذا النحو؛ لأن الرق كان ركنا من أركان المجتمع الذي عاشوا فيه، ومن هنا. كذلك كان تمييـزهم الـذي أبرزه بين العمل الذهني والعمل اليدوي.

يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد، وما على المحكومين إلا أن يطيعوا أوامره.

ولما تقدم العالم في المدنية، تخاص الفرد شيئا فشـيئًا من سلطة الهيئة الاجتماعية، ووسـع فـي دائـرة حريتـه. وانعكس الأمر، فما كان في السابق أصلا عاما، أصبح الآن من المستثنيات، ومن ثم صارت غاية التمدن أن ينال الفـرد أقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية.

ذلك لأن الإنسان ترقى في فكره، فهو يرى أن تسـليم نفسه إلى تصرف الحاكم أمر لا تسـلم بـه لمنزلتـه مـن الإنسانية، ولا يتفق مع راحته وسعادته؛ ولهذا فهو لا يقبل أن يتنازل لأحد عن حريته. ولا أن يأتمن أحدا عليها ولو كـان أقرب الناس إليه، ولا يسمح بأن يترك منها إلـى الحكومـة إلا بقدر ما يلزم تركه؛ لتتمكن من تأديـة وظيفتهـا، وهـي المحافظة على الأمن العام في الداخل، والمدافعة عن سـياج الأمة في الخارج، وأيضا القيام بالأعمال التي تعود منفعتهـا على الجميع.

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد إلى ما تقرره عليه من الأعمال والأموال، أما إذا أرادت الحكومة أو أي فـرد مـن

الناس أن يدخل في عمل من أعماله أو شـأن مـن شـئونه الخاصة، فإنه يشعر بثقل الضغط عليه، ويجد في نفسه ألـم الظلم.

ولذلك سببان:

الأول: أن رأي الحاكم أن طابق هوى شـخص، فقـد يخالف أهواء الأغلب؛ لأن الأمزجـة مختلفـة، والغرائـز متباينة، والأذواق متفاوتة على حسب الأشخاص والأعمـار والأزمان والأمكنة.

فوضع قاعدة واحدة لجميع الأعمال الخاصـة بكـل فـرد لا يسهل على الطباع البشرية قبوله.

والثاني: ما دلت عليه التجارب، من أن تداخل الحـاكم في الشئون الخاصة للأفراد يضعف من قـواهم، ويحرمهـا القدرة على تأدية وظائفها، ويورث النفوس الخمود والعجـز عن العمل، والاتكال على الغير، وهـو وإن أشـعر بعـض النفوس لذة الكسل، عاقبة أقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل، والخلود إلى الراحة، لكنـه يعـود عليها بالخسة وشقاء المعيشة.

فالحرية هي قاعدة ترقى النوع الإنساني ومعراجه إلى السعادة؛ ولذلك عدتها الأمم التي أدركت سر النجاح من أنفس حقوق الإنسان.

ومن المعلوم أن المقصود من الحرية هنا هو استقلال الإنسان في فكره وإرادته وعمله متى كان واقفا عند حـدود الشرائع، محافظًا على الآداب، وعدم خضوعه بعد ذلك فـي شيء لإرادة غيره، اللهم إلا في أحوال مسـتثناة، كـالجنون والطفولية، حتى بالنسبة للأطفال رأى علماء التربية الصحية أن الضغط على الأطفال مميت لعزيمتهم، ورجحوا أن يترك الطفل يتصرف في نفسه بحرية، وإنما على والديه إرشـاده ونصحه.

فهذه الحرية على ما بها من سعة هي التي يجـب أن تكون أساسا لتربية نسائنا، يتعجب بعض الناس مـن طلبـي تخويل الحرية للنساء، ويتساءلون: هل هن في قيـد الـرق؟ ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا في الرأي:

ليس مرادنا أن نقول: إن المرأة اليوم تباع وتشترى في الأسواق، ولكن ليس الرقيق هو الإنسان الذي يباح الإتجـار

به فقط، بل الوجدان السلم يقضي بأن كل من لم يملك قيـاد فكر وإرادته وعمله ملكا تاما فهو رقيق!.

لا أظن أن القارئ يختلف معي في الرأي إن قلت: إن المرأة في نظر المسلمين على الجملة ليست إنسانا تاما، وإن الرجل منهم يعتبر أن له حق السيادة عليها، ويجـري فـي معاملته معها على هذا الاعتقاد، والشواهد على ذلك كثيرة.

فليس من الأدب في كثير من العائلات ألا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه، ولا من الأدب أن تجلس النسـاء مع الرجال، ولا من الأدب أن يأكلن معهم.

وقد رأيت مرارا بعيني أن الرجل يجلس على مائـدة الطعام، وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه، وابنته تحمـل قلـة الماء.

نعم، إن معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد في الغالب في بعض الطبقات، خصوصـا في بلاد الأرياف، لكن استعباد المرأة في الطبقات الأخـرى وفي المدن موجود على أشكال أخرى.

فالرجل الذي يحجر على امرأته ألا تخرج من بيتهـا لغير سبب سوى مجرد رغبته في أن لا تخـرج، لا يحتـرم

حريتها، فهي من هذه الجهة رقيقة بل سجينة، السـجن أشـد سلبا للحرية من الرق. ولا يقال: إن عـدد الرجـال الـذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلا، فإنه وإن قل بالنسبة إلـى الماضي، لكن كلنا نعلم أن من النادر جدا أن تكـون المـرأة متروكة لإرادتها واختيارها في ذهابهـا وإيابهـا، علـى أن كلامنا الآن، إنما هو في مقام المرأة في نفس أغلب الرجـال وما يجب عليها في اعتقادهم أن تعمل به وأن تكون عليـه، فسواء قل احتباس المرأة أو لم يقل، فالمرأة المقصورة فـي بيتها التي لا تفارقه عندهم خير امرأة.

ولو أخذ المسلمون برأي الجهال من فقهائهم، وهم أهل الرأي عندهم، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نسـاءهم وألا يسمحوا لهن بالخروج إلا لزيارة الأقارب في العيـدين، ورأوا من الأفضل ألا تخرج من بيتها في جميع الأحـوال، وقد عدوا من مفاخرهم ألا تخرج المـرأة مـن خـدرها إلا محمولة إلى قبرها!.

ولا شك أن تقرير الحق للرجل في سجن زوجته ينافي الحرية التي هي حق طبيعي للإنسان.

والمرأة التي يسوقها والـدها كالبهيمـة إلـى زوج لا تعرفه، ولا تعرف شيئا من أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة أمره، وتحصل لنفسها رأيا فيه، لا تعتبـر حـرة فـي نفسها، بل تعد في الحقيقة رقيقة، ومن المعلـوم أن عمـوم الآباء في جميع طبقات الأمة يزوجون بنـاتهم علـى هـذه الطريقة، فيتخابرون مع الخطّاب، ثم يعقدون عقد الزواج، أما هن فلا رأي لهن في هذا الأمر الخطير الذي في ذلك كحـال المرأة؛ إذ هو أيضا لا يعلم من أحوال مخطوبته شـيئا؛ لأن الرجل يمكنه أن يتخاص من عواقب جهله بأن يطلقها في أي وقت شاء، أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع،

أما المرأة التي تبتلـى برجـل لا ترضـى نفسـها بمعاشرته، فليس لها إلى الخلاص منه سبيل، فتزويج المـرأة برجل تجهله، وحرمانها حق التخاص منـه، ومـع إطـلاق الإرادة للرجل في إمساكها وتسريحها كيف يشاء، هو استعباد حقيقي.

والمرأة التي يجب ألا تتعلم فروض العبادة، كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم، أو يجب ألا تتعلم إلا مقدارا ومحدودا من مبادئ بعض العلوم، تحسب رقيقة؛ لأن قهـر الغرائـز

الفطرية والمواهب الإلهية على لزوم حد مخصوص، ومنعها عن النمو إلى أن تبلغ الكمال الذي أعدت له، يعـد اسـتعبادا معنويا.

والمرأة التي تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظـاهرة من بدنها، بحيث لا تتمكن من المشي ولا الركـوب، بـل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم إلا بمشقة، تعد رقيقة؛ لأن تكليفها بالاندراج في قطعة من قماش إنما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الإنساني الطبيعي في نظر كل رجل مـا عـدا سيدها ومولاها.

وبالجملة، فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هي رقيقة؛ لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها، وإنما تعيش بالرجـل وللرجل، وهي في حاجة إليه في كل شأن مـن شـئونها، لا تخرج إلا مخفورة به. ولا تسافر إلا تحت حمايته ولا تفكـر إلا بعقله، ولا تنظر إلا بعينه؛ ولا تسمع إلا بإذنه، ولا تريـد إلا بإرادته ولا تعمل إلا بواسطته، ولا تتحـرك بحركـة إلا ويكون مجراها منه.

فهي بذلك لا تعد إنسانا مستقلا. بل هي شيء ملحـق بالرجل.

انظر إلى صبي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة، وقارن بينه وبين والدته، تجد أنها أحط منه في العقل والمعلومات والتجارب، وأنه أكبر منها شأنا، ليس فقط فيما يتعلق بالأمور الخارجة عن المنزل، بل في نفس بيتها.

كيف لا وهو الذي يأمر وينهى فيه. وهو الذي ينوب عنها في إشغالها وادارة بيتها وتدبير ثروتها؟

انظر إلى امرأة تمشي في الطريق، ومعها خادم، تجد في نفسك لأول وهلة أن الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الإرادة والرأي والقوة، وكأن لسان حاله يقول: إني اؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة، وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها. لا حظ أن امرأة محجبة تمر على جماعة من أهل الخلاعة تجد أنهم لا يتحاشون من أسماعها كل ما يخطر على بالها من العبارات المخلة بالأدب.

وفي بعض الأحيان يترامون عليها بأجسامهم ويلمسونها بأيديهم، مع أنه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الأفعال القبيحة، لم تصبر المرأة على هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث إلى دفاع؟ ولم لا يجرؤ هولاء

الرجال على إتيان ما يأتونه من الأقوال والأعمال الشنيعة مع امرأة سافرة؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة أشد فتنة للرجـال بجمالها من النساء السافرات؟ كلا وإنما وقـر فـي نفـوس الرجال عندنا أن البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع، ورأوا في عائلاتهم أن المرأة ليست محترمة، ولا تحس باحترامها لنفسها، وأنها سهلة القيادة، لينة المغمز، تتبعه لأول إشارة بيده أو كلمة يرميها، وأنها تخشى الرجـل ولا تجرؤ على تأديبه، فاسـتخفوا بهـا، وتجاسـروا علـى امتهانها، وتعودوا على ألا يحترموا امرأة مبرقعة إلا إذا وجد معها رجل ولو كان خصيا!

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس إنسان؟

سيقول قوم: كيف لمدع أن يدعي أن المرأة مسـتعبدة عندنا، مع أنا نراها في مكانة من السلطان على قلب الرجـل منا بحيث تسخره لإرادتها وأهوائها، وتصرفه عـن أعمالـه لقضاء رغائبها، وأن الرجل ليتجشم الأسفار ويتـردد بـين المدينة والأخرى لينتقي لزوجته لباسا، أو يختار لها نوعا من أنواع الحلي يرضي بها هواها، ويقضي به رغبتها؛ ليستجاب

رضاها، ثم هي سيدة بيته، لا يرفع فيه إلا مـا رفعـت، ولا يضع فيه إلا ما وضعت، فهل مع هذا كله يقال: إن المـرأة مسترقة للرجل؟ نعم، لا ننكر شيئا من هذا كله، ولكننا ننكـر أن يكون ذلك عاما عند جميع الناس، كما ننكر أنه ناشئ عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بمـا لها من العقل والأدب، وما كسبته من حق الصحبة الناشـئ عن عقد الزواج، وإنما يرفع المرأة أحيانا إلى تلك المنزلـة إفراط في الشهوة من الرجل، يحدثه براعة فـي الجمـال أو تفنن في ضروب الاحتيال.

فهي سيدته ما تعلقت بها شهوته، فإذا خمدت نيـران الشهوة وعاد ما بينهما إلى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها إلى حضيض الذلـة، ولبسـت ثياب الاسترقاق.

سيقال أيضا: أن حرية المرأة تستلزم فـي الواقـع أن يعاملها الرجل باحترام، وألا يضغط على إرادتها وفكرهـا. وأن يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة، ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها، واختلاطها بالرجال، ومعاملتهـا لهم؟ فالجواب: أن إلزام النساء بالاحتجاب هو أقسى وأفظـع

أشكال الاستعباد؛ ذلك لأن الرجال في أعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء، إمـا بالشـراء كمـا بينـاه، وإمـا بالاختطاف.

وفي كلتا الحالتين كانوا يعتبـرون أنفسـهم مـالكين نساءهم ملكا تاما، وتبع ذلك أن الرجل جـرد امرأتـه عـن الصفات الإنسانية خصصها بوظيفة واحدة وهـي أن تمتعـه بجسمها، فأقرها في مسكنه. وألزمها بأن تلازمه ولا تخـرج منه؛ حتى لا يكون لأحد غيره حظ في أن يتمتع بهـا، ولـو بالنظر أو الحديث، شأن المالك الحريص على ملكـه الـذي يريد أن يستأثر بجميع مزايا المتاع الذي يملكه.

ولما كان من المحال ألا تعرض ضرورة تقضي على المرأة بالخروج من منزلها في بعض الأحيان، أراد أن يتبعها بالحجاب، حيث سارت فألزمها بستر وجهها إذا خرجت.

هذا الحجاب الذي قرره الرجل فـي الأصـل علـى زوجته تتعدى بعد ذلك إلى البنات والأمهات والأخوات، وإلى عموم النساء؛ لأن كل امرأة هي زوجة أو كانت زوجـة، أو مستعدة لأن تكون زوجة.

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم، وأثر من آثـار تلك الأخلاق المتوحشة التي عاشت بها الإنسانية أجيالا قبـل أن تهتدي إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجـوز أن تكـون محلا للملك لمجرد كونها أنثى، كما اهتدت إلى أن تفهـم أن سواد البشرة ليس سببا لأن يكـون الرجـل الأسـود عبـد الأبيض.

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذي أوجده، أي بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل، فقد جـرت سنة الله في خلقه بأن الانتقال من طور إلى طـور آخـر لا يكون دفعة واحدة، وإنما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعا لها، فكثيرا مـا يظـن النـاس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات، مع أنهـم سـائرون عنها منتقلون إلى غيرها، متحولون إلى إرادتهـم أو أحسـن منها، وهم لا يشعرون، حتى إذا انتهت الحركة إلى غايتهـا ظهر لهم أنهم صاروا إلى الطور الـذي كـانوا مـن قبـل ينكرون.

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سـنة التدريج أن تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحريـة

حالة اعتبرت فيها المرأة أنها إنسان، لكنه ناقص غير تـام. كبر على الرجل أن يعتبر المرأة -التـي كانـت ملكـا لـه بالأمس- مساوية له اليوم، فحسن لديه أن يضعها في مرتبـة أقل منه في الخلقة، وزعم أن الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة، وحرمها من هذه الهبات، وأنها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل، وأن تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقتصـر فـي بيتها وتستر وجهها إذا خرجت؛ حتى لا تفتـنهم بجمالهـا أو تخدعهم بحيلها، وأنها ليست أهلا للرقي العقلي والأدبي فيلزم أن تعيش جاهلة.

وذلك هو السر في ضرب الحجاب، وعلة بقائه إلـى الآن، فأول عمل يعد خطوة في سبيل حريـة المـرأة، هـو تمزيق الحجاب ومحو آثاره.

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجل لاستعبادها، وجب علينا أن نبحث في طبيعـة المرأة؛ لنعلم إن كانت -كما يقال- أحط من طبيعة الرجل أم لا؟

إذا سألنا الرأي العام فالجواب سهل معلوم.

ولكن الرأي العام لا يصح أن يكون له صـوت فـي مسألة علمية كهذه؛ لأن مبنى الرأي العام القضايا المشهورة، التي صاغتها العادة وقررتها الألفة بدون بحث ولا تنقيـب، فهي مرجع العامة في أحكامها، يردون إليهـا كـل حـادث طبيعي أو اجتماعي لا يعرفون أسبابه، والرأي العام يعتبر أن تغير كل عادة ألفها مخالف للطبيعة؛ لأنه لا يفرق بين العادة والطبيعة؛ حيث يظن أن ما هو حاصـل الآن كـان كـذلك وسيبقى إلى الأبد.

ولا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل في الجملـة، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيتها؟

تلك هي المسألة التي يلزمنا لحلهـا أن نرجـع إلـى الأصول العلمية؛ لنعلم ما تقرره فيها.

رأي العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعـة المـرأة ومبلغ استعدادها للكمال الإنساني بآثارها التي صدرت منهـا إلى الآن.

وإنما يصح ذلك بعد أن تملك من حريتها مـا يملـك الرجل، وبعد أن تشتغل بتثقف عقلها مدة من حريتها ما يملك

الرجل، و بعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوي المدة التي قضاها الرجل في تربية ملكاتهم العقلية والأدبيـة، غير أنهم حكموا بأن المرأة ليست مثل الرجل في الخلقة وأنه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسيولوجية يتميز بها كل صنف عن الآخر. ولكن ليس في هذه الاختلافات ما يدل على أن أحد الصنفين أرقى من الآخر أو أحط منه.

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة (جاك لوربيب) فـي كتابه المسمى: (المرأة أمام المعلم).

وقال الأستاذ فرشلو: "إنني ألقيت دروسا كثيـرة فـي العلوم الحسابية وعلوم الأخلاق والفلسفة لطلبة العلم، وكـان بينهم كثير من النساء، والذي شاهدته بنفسي هو أنه لا يوجد فرق بين الصنفين، وكانت نسبة الدرجات بينهما واحدة".

وقال العلامة (ما نتجـازا" المـدرس لعلـم الإنسـان والعضو في مجلس الشيوخ الطلياني في كتاب جديـد سـماه (فسلوجيا المرأة): "جميع المناقشات عبث إذا أريد أن يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين" ثم قال:

"ما أكفر الرجل! ألجأه كبره أن يزور حتى فـي علـم التشريح، فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول في العالم، بـل

أراد أن يبرهن أن المرأة أقل منه في الإنسانية، وأنهـا فـي مرتبة بين القرد والإنسان؛ ولهذا فيكون لـه الحـق فـي أن يجردها من الحقوق التي منحها نفسه، كأنه نسي أن الـذات التي يريد أن يحط بقدرها هي أمه، والحقيقة أن المرأة -أمام علم التشريح- ليست أقل درجة من الرجل ولا أرقى منـه، وإنما تختلف عنه؛ لأن لها وظائف تقوم بها غيـر وظـائف الرجل".

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بـين الرجل والمرأة بالنسبة للإحساسات والعواطف، فقال ملخصه:

"إن السبب في أهم ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الأدبية هو الاستعباد الذي استولى على المرأة زمانًـا طويلًا؛ حيث تغلب الرجل على المرأة في الطبقة السفلى بقوة عضلاته، وفي الطبقات الأخرى بعلو معارفه وتربيته، وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بأن تستعمل حيل الرقيق لتدافع نفسها، ويظهر أن الرجل يمتاز عليها بقـوة عزيمتـه وزيادة الثبات في أعماله، ولكنها تمتـاز عليـه فـي قـوة الإحساس وتحمل الآلام، وهـي تصـبر علـى الأمـراض والعلميات الجراحية صبرا يعجز عنه الرجل، وربمـا كـان

السبب في ذلك أنها أقل أثَرةً من الرجل، أو أنها اعتادت على الاستسلام والخضوع.

وتتميز المرأة على الرجل أيضا بأنها أضعف شـهوة منه، فالحب عند الرجل ميل شهواني إلـى اسـتيفاء اللـذة الجسدية، والحب عند المـرأة وداد قلبـي غايتـه امتـزاج الروحين، واستدل على ذلك بأن الرجال يسـتعملون جميـع أنواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهن، والكثير مـنهن مع ذلك يدافعن عن عرضهن، ويتغلبن على شهواتهن وقال: "إنه إذا عكس الأمر وفرضنا أنه أبيح للنساء أن يستعملن مع الرجال –لاستمالتهم- ما يستعمله هؤلاء الآن مـع النسـاء فربما لم يستطع رجل أن يحافظ على عفته!"

وقال: "إن حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة، أما الرجل فيسود عنده حب النفس؛ لذلك تراه يفتكر أولا في نفسه ثم في أولاده، بخلاف المرأة ، فهـي تفكـر أولا فـي غيرها ثم في نفسها، فهم الرجل أن يكون سعيدا، وهم المرأة أن تجعل الغير سعيدا، وهذا الإحساس يشـاهد فـي جميـع أعمال الحياة، صغيرها وكبيرها، وأعظم مثال لإيثار المـرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها، فهي تحبه أكثر ممـا

يحبه أبوه، وتحبه مهما كانت عيوبه، بل يمكن أن يقال: إنـه كلما كان ولدها سيئ البخت زاد حبها له، والأب على عكس ذلك".

فالمرأة في رأي أعظم العلماء وأدقهم بحثـا مسـاوية للرجل في القوى العقلية، وتفوقه في الإحساسات والعواطف، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقـل؛ لأن الرجال اشتغلوا -أجيالا عديدة- بممارسة العلم، فاسـتنارت عقولهم، وتقوت عزيمتهم بالعمل، بخلاف النسـاء، فـإنهن حرمن من كل تربية، فما يشاهد الآن بـين الصـنفين مـن الفروق هو صناعي لا طبيعي.

لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل، وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه، ولكنـا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافئ مجموع قواه وملكاته، وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما؛ لأن مجـرد الخـلاف لا يوجب نقص أحد المتخلفين عن الآخر.

فعلى أي دليل علمي يستند الرجال لاستعباد النسـاء؟ وبأي حق جاز لهم أن يحرموهن من حـريتهن؟ لنفـرض جدلا أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل، فهل نقصان العقل

في شخص يبيح أن يجرد من حريته؟ أما يوجد بين أفراد الرجال اختلاف في العقول أكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء؟ أليس عقل المصري يختلف باختلاف طبقات الأمة المصرية، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين في تمتعهم بحريتهم البدنية؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن أكبر عقلا وأكمل أخلاقًا من أزواجهن أو آبائهن أو أبنائهن؟

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الإنسان عن حريته بل الذي يجر إليه الاختلاف إنما هو أن يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الإقناع أو تسود إرادة على إرادة بقوة الاستمالة؛ حتى تسخرها على طوع منها.

ما قررته الشريعة الإسلامية من حقوق المرأة –وقد أشرنا إليه في ما تقدم– يقودنا إلى أن هذه السلطة الأدبية هي التي ترمي إليها الآية الشريفة التي ذكرت أن الرجال قوامون على النساء، وقد نحت الشرائع الأوربية هذا النحو فخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها: سلطة الزوجية، ومع ذلك فكل إنسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن.

ولنفرض جدلا -أيضا- أن حجـاب النسـاء وسـيلة لصيانتهن عن الفساد، فهل يكفي ذلك لحرمانهن من حريتهن؟

إذا كانت معاملة الرجال للنساء جالبة للفسـاد، فلمـاذا تُداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل؟ هل يختلف نظـر العدل بالنسبة إلى الرجل والمرأة، وهل يوجد حقـان: حـق للرجال وحق للنساء؟ أليس كل ذي اختيـار موكولًـا إلـى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج في عمله عمـا حدده له الشرع والقانون؟

نرى أن مسئولية المرأة في هذه الدنيا، وفي الآخرة، لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل، ونرى أن القـوانين لا تعافيها من العقوبات إذا ارتكبت جريمة، ولا تقضي بتخفيف عقوبتها، بل نرى أن الرأي العام جسـم مسـئوليتها، حتـى جعلها أشد من مسئولية الرجل، فإذا استهوى رجـل عمـره أربعون سنة بنتا عمرها خمس عشرة سنة، وانتهز فرصـة ضعفها وفسق بها، يحكم الرأي العام أن هذه البنت الصغيرة هي التي فقدت شرفها، ويهمل شأن الرجل كأنـه لـم يـأت منكرا! أليس ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان أن المرأة مسئولة عن أعمالها؟ فإن كانت مسئولة بهذه الدرجة ألـيس

ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان أيضـا بأنهـا حـرة مختارة؟

لا أظن أن عقلا يقبل أن تعتبر المرأة إنسـانًا كامـل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت، ثم تعتبر إنها ناقصة العقل، بحيث تحرم من حريتها في شـئون الحياة العادية!

اعتقاد الرجل أن امرأته إذا منحـت حريتهـا تسـيء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها؛ لأنه لا يباح لإنسـان أن يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على إرادته بحجـة أنه يريد منعه من ارتكاب خطيئة. ولو جاز -لـدفع ضـرر محتمل الوقوع- تجريد الإنسان عن حريته لوجـب وضـع تسعين في المائة من الرجال تحت قانون الحجاب؛ منعا لهـم من الفساد!

بل لو قبلت المرأة أن يوضع عليها الحجاب لم يعتبـر قبولها هذا التزاما صحيحا بحيث يمتنع عليها بعـد ذلـك أن تحل عقدته؛ لأنه التزام باطل؛ لمنافاتـه للطبيعـة البشـرية والقواعد الشرعية.

على أن ما قيل من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة، كله كلام لا أصل له، تبطله التجارب وينبذه العقل؛ إذ أن التجارب المؤسسة على الشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد في ملكاتهن الأدبية وتبعث فـيهن إحساس الاحترام لأنفسهن، وتحمل الرجال على احترامهن.

ولا نذهب في تأييد هذا الرأي مذهب غيرنا بالإتيـان بإحصاء مخترع لا حقيقة له، نشره بعضـهم فـي الجرائـد الهزلية تفكهةً للقراء، ونسب فيه إلى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأة الألمانية تخون زوجها سبع مرات! والبلجيكيـة سـت مرات وأربعة أخماس المـرة! والهولنديـة أربـع مـرات! والطليانية مرة وخمسة أسداس! والفرنساوية مـرة واحـدة! وهكذا إلى أن وصل إلى التركية، والمراد بها الشرقية، أنهـا لا تخون زوجها إلا عشر المرة الواحدة!

فقد انتهى الهذيان المعتمد على مثل هذه الإحصاء إلى الاعتقاد بأن ما نشر في تلك الجريدة على سبيل الهزل هـو من (الأبحاث العلمية الدقيقة المستندة على الأرقام)، ولم يمر بفكره أن الحصول على إحصاء في مثل هذا الموضوع هـو من الأمور المستحيلة، لأن وقائع الزنا لا يمكن إحصاؤها إلا

إذا وصلت المحاكم، ومعلوم أنه لا يصل إلى المحاكم منها إلا النادر:

ولا نسند رأينا إلى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل، كما يفعل أولئك الذين يدعون أن المرأة متـى جلسـت مـع الرجال في مكان واحد مدة خمس دقائق، وجب محو اسـمها من قائمة النساء الفاضلات! فإن كل قضية لا ترجع إلى أحد أنواع البدهيات المعروفة عند أهل النظر لا تصح أن تكـون مقدمة لدليل، أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وجد في خزانة مخه إلا أن الرجل والمرأة، هما دائما في طوع شهواتهما، هكذا شـأنهما، يسـتعملان مـن أنفسهما الأخلاق التي جبلا عليها، ويعتقـدان أنهـا أخـلاق الإنسانية كلها، فهما في نظر أنفسهما يمثلان الرجل من حيث هو، والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثل فـي نظـرهم المرأة من حيث هي، وما دروا أن الرجـال يختلفـون فـي أخلاقهم ومزاياهم إلى ما لا نهاية له، على حسـب الزمـان والمكان وطرق التربية، وأن المرأة تختلف خلائقها وآدابهـا على نحو ما يختلف به الرجال.

هذا الاختلاف الذي يعرض في حياة النسـاء الأدبيـة ينشأ غالبا من اختلاف العادات.

أول شيء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو أن تكون عفيفة، ولهم الحق في أن يطلبوا منها أن تكون متحلية بهـذه الفضيلة، ولكنهم بذلوا ما في وسعهم لمحو هـذه الفضـيلة، وجعلها من المستحيلات؛ وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل إلى الشـهوات؛ فـإن سـجن المـرأة والتضييق عليها في وسـائل الرياضـة، يعرضـانها دائمـا لضعف الأعصاب، ومتى ضعفت الأعصاب اختل التـوازن في القوى الأدبية، هذه حقيقة يلزم أن يعترف بها كل إنسان، فإن من الحقائق الثابتة أن الجسم إذا كان قويا وكـان القلـب يرسل الدم إلى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الإنسان بقوتها، فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية، فهـي لا تضعف عن مقاومة الأهواء والنزعـات الرديئـة، ومـن المشاهد أن التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتـور في الجسم وانحلال في القـوى يـؤثران فـي الإرادة وفـي العزيمة، فكما إذا حاول الجسم نهوضـا لا يكـاد يسـتطيعه فيسترسل مع الميل إلى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزهـا

عن ضبط أهوائها ومقاومة كل ميل تقتضي مدافعتـه جهـدا ومشقة.

لا شك أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهـم أعوان الإنسان على ضبط نفسه. وإن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء.

فإن كانت في حاجة إلى الاستشهاد برأي بعض العلماء على ما نقول فإني أنقل ما قاله رجل أجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلوري.

قال في كتابه المسمى (جسم وروح الولـد): "إن آلـة العقل هي المخ، فكل انحراف يعرض في الصـحة البدنيـة يؤثر فيه، فإذا استوفينا شروط صـحة الجسـم، أمكننـا أن نحصل سلامة الإرادة وقوة الحكم، ونحسن في أخلاق المرء وآدابه".

فالنساء المسجونات يحسبن قبـل كـل شـيء نسـاء مريضات؛ ولهذا فهن أشد تعرضا لمطاوعة شـهواتهن مـن النساء اللواتي يتمتعن بحريتهن!

فإذا اقترن الحجاب بالبطالة، ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها، تبعها قتل كل فضيلة في نفس المرأة.

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يـروق لبعضـنا التصريح بوجوده، وربمـا يعجـبهم أن يقـال: إن نسـاءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل أوقاتهن، وإن منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سبب في تحويل عنايتهن عن هـذه الواجبات وتوجيهها إلى أمور لا يعود منها نفع على المـرأة ولا على بيتها. ولكن نحن لا يهمنا إلا تقرير الحقيقـة كمـا هي. نحن نقول: إن وجود الواجبات شيء والقيام بها شـيء آخر، وإن نساءنا اللاتي لا عمل لهن، ولا شأن لهن خـارج المنزل لا يجدن من الوقـت مـا يسـع القيـام بواجبـاتهن لأزواجهن وأولادهن، وأنهن تركن شئون الحياة البيتية إلـى غيرهن. بخلاف النساء العربيـات اللاتـي اتسـعت دائـرة أعمالهن حتى كادت تساوي دائرة أشغال الرجـال. فـإنهن يجدن مع ذلك الوقت الكافي لتأدية جميع واجباتهن المنزليـة وما سبب ذلك إلا أن العمل يدعو إلى العمل، والراحة تـدعو إلى الراحة.

ثم إن الطريقة التي يربى بها الأطفال في البيوت لهـا مدخل عظيم من انحطاط الآداب أيضا.

يمكنني أن أجاهر هنا بلا تردد أن صبيا من أولادنـا، ذكرا كان أو أنثى، لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد إلى ذهنه من الألفاظ والصور المحركة للشهوة، وينمو فـي قلبه من الميل مع ما تدعو إليه غريزة التناسل، ويبلغ مع ذلك ما لا يبلغه شاب أو شابة في سن الخامسة عشرة أو الثامنـة عشرة من أبناء البلاد الأوربية.

وليس لاختلاف الإقليم دخل في ذلك، وإن كان له أثر فهو أثر ضعيف، وإنما الأثر الحقيقي هـو لطريقـة تربيـة الأطفال.

لو كان الرجال الأذكياء والمتعلمون منا يلاحظون مـا يقع ويقال أمامهم كل يوم، لو كانوا يفكرون في ما يعـرض على أعينهم وآذانهم في الطرق والمجتمعات فـي كـل آن، لاتفقنا جميعا في هذه المسألة وغيرها من المسائل الأخـرى التي لا سبب لاخـتلاف الـرأي فيهـا إلا اهتمـام بعضـنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام أحد منا بأن يفهم ما يقول الآخر.

لو أمكننا أن نفصل جميع المؤثرات المادية والأدبيـة التي تتكون منها إحساسات الطفل وأمياله لرأي القارئ بنفسه أن البنت التي تربى في عائلة مصرية لا يمكن أن تنمو فيها خلالُ الفضائل. ويكفينا آن نذكر هنا أمثالا من هذه المؤثرات التي تقع في العائلات المتوسطة التي هي أحسـن الطبقـات أدبا.

فمنها أن أقارب الأطفال لا يتحاشون -غالبا- تسـمية كل شيء باسمه الحقيقي ويذكرون الوقائع التي تجري بـين الزوج وزوجته أمامهم، بدون أن يخطـر علـى بـالهم أن يأمروهم بالخروج في هذا الوقت إلى مكان آخر، وأيضا أول شيء يأتي على لسان الزائر إذا صادف بنتا صغيرة في بيت هو أن يسألها إذا كانت تريد أن تتزوجـه أو تتـزوج بابنـه الصغير، وإذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن أعجبها من بينهم!

ومنها حضور الأطفال في حفلات الأفراح، ومشاهدتهم رقص الباغيات، وسماعهم الأغاني التي تدور كلهـا علـى الحب الشهواني.

بمثل هذه المناظر، وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة إلى ما كان يجب أن تغفل عنه، وينبت فيها الميل الشهواني.

ثم إذا عرف أن بنتا عانقت صبيا في أثناء اللعب، يوجه اللوم عليها من أهلها، ويقال لها: إنها أتت أمرا فاضحا، فإذا سألت البنت: أي عيب في ما فعلت؟ أجابها المسئول بما يعن له، وما تسمح له به تربيته، وكلما تقدمت الصبية في السن زاد الحجر عليها وإبعادها عن مخالطة الرجال، وفي هذا من استلفات ذهنها إلى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها إلى البحث في هذا الأمر الذي يشغلها ويشغل أهلها إلى هذا الحد، فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها، فتتعلم منهن بعضه، وتشتغل مخيلتها بفهم الباقي.

فهذه العيشة التي تمر على البنت، وأهم ما فيها عندها الرجل وأحواله، ونسبها إليه وعلاقاتها به، وبعدها عنه وقربها منه، هي بلا ريب أعظم مؤثر في مزاجها؛ لأنها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الأول في حياتها.

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا، وشعورهم بأن النساء لا هم لهن ولا شاغل لعقولهن إلا شأنهن مع الرجال،

لا ترى رجلًا بين المصـريين يـأتمن زوجتـه، ويرضـى بمعاملتها لرجل أجنبي عنها، وفي بعض البيـوت لا يـأتمن الرجل شقيقه، ولا يسمح لامرأته أن تكلمه أوتكشف وجههـا عليه ولو كان حاضرا معهما، وكذلك في كثير من العـائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته.

وليس من رأيي أن أعيب الرجال والنساء على سـوء ظن بعضهم ببعض إلى هذا الحـد؛ لأن عوائـدنا وتربيتنـا الحالية قضت عليهم بألا يثـق بعضـهم بـبعض، وجعلـت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء، ولم تجعل من الدين ولا من المرؤة ولا من كرم الخلق ولا من حسن الأدب أدنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش.

ولكن ليسمح لي القارئ أن آتي على بقية فكره فأقول:

بقي الحجاب إلى الآن مستمرا للأسباب التي بيناهـا، أي: لأنه كان تابعا لهيئتنا الاجتماعية الماضية، مـن الجهـة السياسية والعقلية والأدبية، كنا محكومين بالاستبداد، فظننا أن السلطة العائلية لا تؤسس إلا على الاستبداد، فسجنا نسـاءنا وسلبناهن حريتهن، وملكنا وحدنا حق قيد الزواج، واستعملنا في تربية أولادنا الأمر والنهي، والإخافة والضـرب، وكنـا

جهالًا فتخيلنا أن المرأة لا وظيفة لها ولا عمـل لهـا إلا أن تكون موضعا لشهوة الرجل، وواسطة من وسائط مسـرته، وفاتنا أنها هي أيضا إنسان مثلنا، وأن لها الحق في أن تسعى إلى طلب سعادتها بالوسائل التي وضـعها الشـارع تحـت تصرف الرجال لطلب سعادتهم، فلما أسقطنا منزلـة المـرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه، فحرمنا كـذلك مـن السعادة الحقيقية، وانحطت أخلاقنا وفسدت تربيـة أولادنـا، واستولى الحزن واليأس على قلوبنا، حتى ظن الكثير منا أن حياة الأمم الإسلامية اقتربت من نهايتها، ولم يبقَ لهـا فـي التزاحم العام نصيب من النجاح. وأخذوا يتبـاهون بالمدنيـة الإسلامية القديمة كلما تحدث الأوربيون بعلومهم وفنـونهم، ويفتخرون بالتمدن العربي في الأعصر الماضية كلما ذكـر التمدن الغربي الحديث، كما تسلي نفسها عجوز وصلت إلـى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها.

لكنا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغيـرا كليـا، فأصبحنا أحرارا ونحب الحرية، وبدأ التعليم الصحيح في أن ينتشر بين أفراد أمتنا، وتهيأت عقولنـا إلـى إدراك منزلـة الإنسان في الوجود ومرتبة المرأة في البيت، وشـأنها فـي

العالم، فهل يليق بنا بعد هذا أن نحافظ على العادات والتقاليد القديمة، ونحرص على عادة الحجاب، ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة ؟ أو يكون من الأليق بنا أن نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التي انتقلنا إليها ويكـون من شأنها أن ترتقي بنا إلى ما هو خير منها؟

وبعبارة أخرى: يوجد مذهبان أحدهما: ينصح النـاس بالتمسك بالحجاب.

والثاني: يشير عليهم بإبطاله، فأي هذين المذهبين يجب أن نختاره؟ وما هو رائدنا في الاختيار حتى لا نقع في عاقبة الخطأ؟

أما الحجاب فضرره أنه يحرم المـرأة مـن حريتهـا الفطرية، ويمنعها من استكمال تربيتها، ويعوقها عن كسـب معاشها عند الضرورة، ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية، ولا يأتي معه وجود أمهات قادرات علـى تربيـة أولادهن، وبه تكون الأمة كإنسان أصيب بالشلل فـي أحـد شقيه.

ومزاياه تنحصر في أمر واحد هو أنه يقال الزنا؛ حيث يحول بين الصنفين، ويمنع الاختلاط بينهما في الظاهر، وإن

لم ينزع الميل إليه من النفوس، فيكون ما يسمونه: عفة على حد ما قيل:

"إن من العصمة ألا تجد" فالأجساد في صيانة، وأغلب القلوب في خيانة!

وأما الحرية فمزاياها هي إزالة جميع المضـار التـي تنشأ عن الحجاب، وسبق ذكرها وضررها الوحيد أنها فـي مبدئها تؤدي إلى سوء الاستعمال، ولكن مع مـرور الـزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسئوليتها، وتتحمل تبعة أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها؛ حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية، التي هـي ترفـع الـنفس المختارة الحرة عن القبيح، لا خوفا من عقاب ولا طمعا فـي مكافأة ولا وجود حائل ليس في الإمكان إزالته بل؛ لأنه قبيح في نفسه.

وليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هـذه المنزلـة الأدبية ما دامت في الحجاب، ولكن من السهل جدا أن تصل إليها بالحرية.

تصل إليها كما وصلت إليهـا غيرهـا مـن النسـاء الغربيات، فإنا نرى أنه كما زيد في حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها.

قال الهامة (مانتجازا):

(أعظم شيء يؤثر في أخلاق البنات الحرية التي تعطى إليهن من عهد طفولتهن).

وقال:

"إن الفضائل الجليلة التي تشاهد عند النسـاء اللاتـي يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تنسب إلى الإقليم؛ لأني وجدت هذه الفضائل في "بيونس – آيرس" التي تشتد فيها الحـرارة ويصفو فيها أديم السماء، وتنمو فيها الثرثرة العمومية، ولـو كان لطبيعة الإقليم مثل هذه الأثر في الأخلاق لفسدت أخلاق النساء في تلك البلاد.

كانت البنات لا يخرجن من الأديرة إلا عند الـزواج، وكن جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكن يتلقين دروس الحب من غير الزواج في أغلب الأحيان؛ ذلك لأن مـن القواعـد العامة أن البنت التي لا تختار زوجها بل تكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التي توصلها إلى الخطيئة، فلا شيء

يقي البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسـها بعـد أن تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال".

وقال في وصف نساء وطنه: "إن المرأة الطليانية أقـل من غيرها عفة؛ لأنها تتزوج غالبا من غير أن تحب زوجها. وكذلك الحال تقريبا في نساء فرنسا".

أما النساء الإنكليزيات والأمريكيات والألمانيات، فأثنى على كمال عفتهن ونسبها إلى طـرق تـربيتهن وتمـتعهن بالحرية والاستقلال في أعمال الحياة.

فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة، ولكـن مـا أعظم الفرق بينهما في النتائج التي تترتب عليهما! حيـث إن الوسيلة الأولى تضع المرأة في وصف الأدوات والأمتعـة، وتجني على الإنسانية، والثانية تخدم الإنسانية، وتسوق المرأة في طريق التقدم العقلي والكمال الأدبي.

فقد رأيت مما ذكرناه أن ما اخترناه في تربية المـرأة ووقاية عفتها ليس مبنيا على أمر نظري لا يستند إلى واقـع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة.

وصل احترام الرجل الغربي لحرية المرأة إلى حد أن الأب يخجل من نفسه أن يفتح الخطابات التي تـرد لابنتـه،

وكذلك الزوج يرى الأجدر به ألا يفتح الخطاب الذي يرد إلى امرأته، وهذه المسألة الأخيرة كانت موضوع بحث مهم بين أعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريبا، وتقرر فيها أن سلطة الزوج لا تتيح له أن يطلع على أسرار زوجته؛ لأن هذا العمل يعد تجسسا مهينا لحرية المرأة وشرفها.

نعم، إن أغلب الزوجات يطلعن أزواجهن على ما يرد إليهن من الخطابات، كما أن أغلب الأزواج يعرضون المراسلات التي ترد إليهم على زوجاتهم، ولكن يوجد فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجبا بمقتضى حق يدعى.

بلغ من أمر احترام الرجل الغربي لحرية المرأة أن بنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض، وحدهن أو مع خادمة، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة، متنقلات من بلد إلى أخرى. ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما.

كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج، ورأي غير رأي الزوج، وأن تنتمي لحزب غير الحزب الذي ينتمي إليه الزوج، والرجل في كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق في أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها.

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت الغربيين قائما على قواعد متينة! ونرى هؤلاء الأمم في نمو مستمر! ولم يحل بهم شيء من المصائب التي يهددنا بها، أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين أطالوا الكلام من شرح المضار التي تنتج عن إطلاق الحرية للنساء! فكثيرا ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنساء يؤدي إلى اختلاط الأنساب، وأنه متى اختلطت الأنساب وقعت الأمة في هلاك.

فهذه ممالك أوربا جميعا، نساؤها ورجالها مختلطون، في كل أطوار الحياة وفي كل آن، وها هم إخواننا وأبناء وطننا المسيحيون، واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب، وربوا نساءهم على كشف وجوههن، ومعاملة الرجال، فأين هم من الاختلال والهلاك؟!

لنترك هذه النظريات الخيالية التي لا قيمة لهـا أمـام الوقائع:

دلت التجربة على أن الحرية هي منبع الخير للإنسان، وأصل ترقيه، وأساس كمالـه الأدبـي، وأن اسـتقلال إرادة الإنسان أهل عامل أدبي في نهوض الرجال، فلا يمكـن أن يكون لها إلا مثل ذلك الأثر في نفوس النساء.

غاية الأمر أن كل تغيير يعرض على الأنظـار فـي صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبـل هو في الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه؛ ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره إلا العدد القليل ممن يمتد نظرهم إلى ما يمكنه المستقبل من الحوادث.

انظر إلى حالة مصل: عاشت الأمة المصرية أجيـالا في الاستعباد السياسي، فكانت النتيجة انحطاطا عامـا فـي جميع مظاهر حياتها، انحطاط في العقـول وانحطـاط فـي الأخلاق، وانحطاط في الأعمال، وما زالت تهبط من درجـة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكـون جسـما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشة النبات أكثـر مـن عيشـة

الحيوان، فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ما تصنع بحريتها الجديدة.

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى، ولا يقدر لها قيمة، وكان الناس يستخفون ويهزءون بالحرية، بل ويتألمون منها، وينسبون إليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم، فكم من مرة سمعنا بأذننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة ؟!

ثم اعتاد القوم شيئًا فشيئًا على الحرية، وبدءوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن أن يكون ناتجا عنها، بل له أسباب أخرى، وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية، حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها، ولنا الأمل في أولادنا الذين يشبون على الحرية التامة، يجنون جميع ثمراتها النفيسة التي من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل، عند ذلك يعرفون جيدا أن الحرية هي أساس كل عمران.

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء.

أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم؛ لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية، ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة

على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا، وترقى ملكاتها العقلية والأدبية، وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالتربية؛ حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه.

ذلك لأن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي، فكما أن الطفل يحبو قبل أن يمشي، ويتعلم المشي بالتدريج، فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته، ثم متى تعلم المشي وحده، لا يحسنه إلا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع في خلالها مرات كثرة، كذلك الإنسانية في سيرها الأدبي لا تنتقل من حال إلى حال أحسن منها إلا بالتدريج، وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلاف والتجارب المؤلمة؛ حتى تستقيم في سيرها.

تلك سنة الفطرة، فلا يجوز لنا أن نتخيل أن في إمكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها، كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع إلى الوراء أو نوقف تقدمنا إلى الأمام.

فإن أركنا أن نصل إلى الغاية التي وجهنا إليها آمالنا فما علينا ألا أن نستسلم إلى حكم السنة الإلهية، ونقبل المتاعب والمشاق التي بدونها لا يمكن الوصول إليها، وإلا كان مثلنا كمثل أب مجنون خاف على ولده إذا مشى أن

يسقط على الأرض، فمنعه المشي حتى كبر، فعـاش مقعـدا مشاول الرجلين.

الواجب على المرأة لنفسها

أول ما يستوقف نظر الشرقي الذي يحل في مدينة من مدن أوربا هو المركز المهم الذي تشغله المرأة فيها، ويظهر له من أول وهلة أن التقسيم المصطلح عليه في بلادنـا بـين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية. هذا التقسيم الذي يحـول بين اشتراك الصنفين في جميع أطوار الحيـاة ومظاهرهـا، ليس من القواعد المعترف بصحتها في تلك البلاد.

فإذا ترك أوربا وجال في أرض أمريكا، شخص بصره مندهشًا من المنظر العجيب الذي يراه، واستولى الاستغراب على عقله إلى درجة الاضطراب، فيجد أن تقسيمه الغريب قد اضمحل حتى كاد يكون معدوما، ويـرى النسـاء يشـتغلن بأشغال الرجال، والرجال يعملن أعمال النساء بـلا فـرق، ويسمع أهل أمريكا يتهمون سكان أوربا بأنهم سكان ظالمون نساءهم، مجحفون حقوقهم، كما يرمـي الأوربيـون رجـال الشرق باستعمال الاستبداد مع نسائهم!

هذا المنظر يراه الشرقي ويستغربه في أول الأمر ثـم ينساه، ولا يفكر فيه بعد ذلك، فيعيش بجانب الغربيين وهـو لا يعرف شيئا من أحوالهم، وإن أتى ذكرها عفوا في بعـض

الجرائد أو الكتب، فلا يحرك ذلك في نفسـه أدنـى شـوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفي منها.

ذلك لأنه وقر في نفسه أن عاداته هي أحسن العادات، وأن كل ما خلاها ليس جديرا بالتفاته واهتمامه.

لكن طالب الحقيقة الذي تعود علـى طريقـة الانتقـاد العلمي لا يحكم في الحوادث الاجتماعية على هذا الضـرب من التساهل.

فإن رأى يوما في إحدى الجرائد أن (الست غوردون) ترافعت أمام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجـل متهم بالقتل، ثم رأى يوما آخر في مجلة أن السـت (كـاري رينار) إحدى قسيسات الولايات المتحدة، خطبت في الكنيسة في مدينة لوروا على ملأ عظيم من الرجال والنساء. ثم رأى مرة أخرى أن الست (ستون) تدرس الاقتصاد السياسي فـي كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكورا وإناثا. ثـم علـم أن لتلـك المحامية زميلات يشتغلن أمام جميع المحاكم، ولتلك القسيسة زميلات في كثير من الكنائس، ولتلك الأستاذة زميلات فـي أغلب المدارس، وأن تلك النسوة قائمـات بأعمـالهن علـى

طريقة لا تزيد ولا تنقص في الإتقان عما يقوم به الرجال في أعمالهم فماذا يعتقد حينئذ؟ يعتقد أن قول الشاعر:

كتب الحرب والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

هو قول لا ينطبق على الحقيقة في شيء، فلا يصـح الاستناد عليه في الرد علينا، ونحن نعذر الشاعر الـذي لـم يفعل سوى حكاية حال النساء التي وجدهن عليها في عصره، ولكن هل يمكن أن نعذر أنفسنا في اعتقادنـا أن النسـاء لا يصلحن إلا لجر الذيول، مع أن نظرة واحدة فـي الأعمـال النفيسة التي يأتي بها النساء في الغرب تكفي في العلم بـأن حياة المرأة تصلح أن تكون مملوءة بشيء أفضل من اللهـو واللعب وجر الذيول؟!

هذه الصورة التي شخص بها الشاعر صورة المـرأة ليست صورة المرأة الحقيقية؛ لأنها ليست صورة إنسان، بل ولا حيوان! إذا ليس في الوجود حي إلا وله وظيفة يؤديهـا وعمل يشتغل به، ولا يوجد بين أنواع الحيوانات، من أفضلها إلى أدناها فرد إلا وهو خاضع لقانون التزاحم في الحياة.

إذا أردنا أن نرتب أعمال الإنسان بحسب أهميتها نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

أولها: الأعمال التي يحفظ المرء بها حياته.

وثانيها: الأعمال التي تفيد عائلته.

وثالثها: الأعمال التي تفيد الوجود الاجتماعي.

ومن البدهي أن كل تربية صحيحة يجب أن تمكن الإنسان من القيام بهذه الأعمال، وأن تراعي هذا الترتيب الطبيعي. فالمعارف التي تضمن سلامة الحياة والقيام بالضروريات والحاجات اللازمة لها هي أهم من غيرها، فيلزم أن تفضل على المعارف التي تختص بالواجبات العائلية؛ لأنه لا يمكن القيام بأي واجب عائلي إلا بعد قضاء الواجبات الأولى. كذلك المعارف التي ترشد الإنسان إلى معرفة واجباته العائلية هي مقدمة على المعارف التي تختص بالواجبات الاجتماعية؛ لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت.

إذن تقرر ذلك نقول: إن التربية التي تشمل هذه الأنواع الثلاثة على الترتيب الذي وضعناه، هي لازمة للرجال والنساء على حد سواء.

ولكن، دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية، فإني ما طلبت المساواة بين الرجل والمرأة في شيء منها؛ لا لأني

أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية حجرا عاما مؤبدا – هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي، بل لأني أرى أننا لا نزال الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية. وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقا، ويلزمها أن تقضي أعواما في تربية عقلها بالعلم والتجارب؛ حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية.

لهذا نترك الكلام على الأعمال والمعارف التي تتعلق بالنوع الثالث، ونقتصر في الكلام هنا على الأعمال والمعارف التي تختص بالنوعين الأولين.

مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة لا يجوز أن يدعي أحد أنها يمكنها أن تستغني عن الأعمال التي تحافظ بها على قواها الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الإنسانية.

كذلك مهما اختلفنا في تحديد وظيفة المرأة في العالم، لا بد أن نعترف أنها لا يمكنها أن تتخلى عن الأعمال والمعارف التي تتعلق بواجباتها العائلية.

إذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الأعمال يكون نافعا، وكل تربية تؤهل المرأة إلى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو أيضا نافع.

يظن الكثير منا أن المرأة في غنى عن أن تتعلم وتعمل، ويزعمون أن رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن، وضعف بنيتهن يصعب معه أن يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل.

ولكن هذا الكلام هو في الحقيقة تدليس على النساء، وإن كان ظاهره الرأفة عليهن.

والناظر في أحوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يجعله على بينة من ذلك. يرى أن الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان إلا للحظات قليلة، وأنهما يتحاربان آناء الليل وأطراف النهار، يريد الرجل أن ينتهز ضعف المرأة وجهلها؛ ليجردها عن كل ما تملكه، ويستأثر وحده بالمنافع، وتجتهد المرأة على قدر إمكانها في الدفاع عن نفسها، ولا تجد إلى ذلك سبيلا.

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين في كتاب لكانت أحسن ما يمكن أن يكتب للدفاع عن حقوق المرأة.

لا أظن أني مبالغ إن قلت: إنه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة، لأى سبب من الأسباب، سواء كان لزواج وقع بينهما أو لاشتراك في ملك آل إليهما أو لتعهد ارتبطا به، فأول ما يسبق إليه فكر الرجل هو أن يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها، والمسكينة غافلة عن الأخطار التي تحدق بها، وان اكتشفتها فلا يكون في الغالب إلا بعد خرابها.

وعلى أية حال، متى وقعت في الشرك لم يبق لها من حيلة إلا البكاء والعويل؛ لأنها ترى نفسها في حيرة وارتباك، لا تدري معهما ماذا تصنع للخلاص.

وكل المصريين يعلمون أن النساء في الوجه القبلي بعامة كن محرومات من حقوقهن في التركات التي يرثن فيها بمقتضى أحكام الشريعة، وأن هذه الحال بقيت مستمرة إلى أن دخل نظام المحاكم الأهلية في الصعيد، حتى إن بعض المديرين الذين أخذ رأيهم في تشكيل المحاكم الجديدة في الوجه القبلي كانوا يعدون من موانع تشكيلها أنها لو شكلت يكون من أحكامها أن يعطى النساء حقوقهن في التركات، وأن في هذا تغييرا كبيرا للعادات المتبعة في تلك البلاد!

وليس في هضم حقوق النساء شيء من الغرابـة، ولا هو مما يوجب الدهشة لأحد.

نحن نفهم أن رجلا يعيش في عالم الخيال يكتب فـي مكتبه على ورقة أن ليس على النساء إلا أن يقرن في بيوتهن خاليات البال، تحت كفالة وحماية الرجال، نفهـم ذلـك؛ لأن الورق يتحمل كل شيء!

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية علـى هـذه الطريقة؛ إذ يكفي في ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فـي قالب لطيف؛ ليقيم الكاتب نفسه مشروعا حكيما، ويحكم على القوانين والعادات والأخلاق.

وإنما يجد الصعوبة رجلٌ اعتاد على أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع. فإنه إذا أراد مثلا أن يحصـل لنفسه رأيا في ماهية حقوق النساء التي نحن بصددها.

يجب عليه أولًا أن يسوق نظره إلى الوقائع التي تمر أمامه، أعني أن يطبق نظريته على الواقع ويتصـورها فـي ذهنه منفذة ومعمولا بها في قرية، ثم في مدينة، ثم في إقليم، وتتمثل أمامه النساء في جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن، فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل، ويـراهن فـي

المدرسة وفي البيت، وفي الغيط وفي الدكان، وفي الأمـاكن الصناعية ويقف على سلوكهن مـع أزواجهـن وأولادهـن وأقاربهن والأجانب، ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شـأن غير ما لنسائنا في بلادنا، وكيف أنهن يسـتعملن حقـوقهن والنتائج التي ترتبت على هذا الاستعمال، ويقف على حالـة المرأة في الأزمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها.

ذلك عمل ليس بالسهل؛ لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة.

فإذا توفر له ذلك كله، لم يتيسر له أن يحكم في المسألة حكما قاطعا؛ لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية، فـلا تكون نتائجها إلا تقريبية؛ لذلك تراه دائما على طريق البحث لا يركن إلى ما وصل إليه جهده، إلا ليضعه قاعـدة لعمـل مؤقت، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضـيه الحـال ويظهره العمل.

والأمر بالعكس عند صاحب النظرية الخياليـة، فهـو يعتقد أن قضيته تشبه قضية حسابية فهي لا تخطئ أبدا، مـع أنها مؤلفة مع معان عامة مهمة لا يستقر الذهن فيهـا علـى شيء محدود – مثل ضعف المرأة، وقوة الرجـل، وتقسـيم

المعيشة إلى داخلية وخارجية وهكذا – هذه المعـاني تمـلأ عقله؛ ولكونها مجردة عن الوقائع والمشـاهدات فهـي فـي الحقيقة ألفاظ يكون عنها قاعدة عامة صـالحة لكـل زمـان ومكان.

فهو لا ينظر إلى الأشخاص الحقيقيين، ولا يرى نفسه محتاجا إلى أن ينظر إليهم، ولا أن يبحث في أحـوالهم، ولا يخطر بباله أن للمادة الإنسانية صورة غير الشكل الخيـالي الذي ملك عقله؛ لذلك لا يهتم بأن يرى تلك المادة في صورة امرأة راعية أو زراعية أو صانعة أو تاجرة ولا يبحـث أن كانت غنية أو فقيرة، عائشة وحدها أو في عائلة، ساكنة فـي المدن أو القرى أو البادية.

هذه الصورة العديدة المختلفة لا تنفذ إلى مداركه، ولا تقر فيها؛ لأن جميع نوافذها قد سدت بحسم النظريـة التـي احتلت عقله من أوله إلى آخره، حتى لم يبق فيه مكان لشيء آخر.

فهو أن كتب أو تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم وإحساس ووجدان، وإنما يكتب ويـتكلم عـن المرأة التي في ذهنه.

وهي امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين، جميلـة المنظر رقيقة الطبع، شهوية المزاج، تكفي إشارة منها لكـي تنال ما تشتهيه نفسها؛ لأنها ذات ثروة عظيمة، أو لأن لهـا بعلًا وافر الثروة ولا يبخل عليها بشيء، أما أخلاقها فانحطاط النفس، والميل إلى الكذب، والاحتيال والتطلع إلـى أعمـال السوء، لا يحول بينها وبين ذلك إلا الحكم عليهـا بملازمـة البيت والاحتجاب عن الرجال.

ولا نرى في تمثيل المرأة في أذهاننا بهذا إلا توارثنـا آراء العرب فيها؛ ذلك أن حياة العرب كانت حيـاة حـرب وقتال، وأرزاقهم كانت من الغنائم، وغني عن البيان أن أمـة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير؛ إذ المرأة في هذه المعيشـة لا تسـتطيع أن تجـاري الرجل؛ ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بيـنهم، حتى حسبت من المتاع وأدوات الزينـة، وتناولهـا السـلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الأموال.

ومن هذا نتج التسري وتعدد الزوجات.

وكما أن المرأة لم يكن لها عمل عند الأمـة العربيـة؛ لانحصار المعيشة كلها في الغزو والدفاع عن القبيلة كذلك لم

يكن لها عمل في العائلة؛ لأن التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والأكل؛ حتى ينشأ رجلا مقاتلا، لا عالما فاضلًا.

فلا عجب إذا رأينا في كلام العرب وشعرهم وقصصهم، بل وفي مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم، ما يدل على احتقارهم للمرأة.

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة في عقول المسلمين، وهي صورة حقيقية إذا نظر إلى الماضي، ولكنها مزورة إذا نظر إلى الحال والمستقبل؛ ذلك لأن المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التي كانت تعيش من آلاف السنين، لا في الظاهر ولا في الباطن، وتختلف عنها في الملبس والمأكل والمسكن وفي العادات والأخلاق والحاجات والضرورات؛ لأن الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التي هي موجودة فيها الآن تغيرت تغيرا كليا عما كانت عليه في الماضي، وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب.

فالمرأة العربية كانت تكتفي من طعامها بخبز من شعير، ومن ملبسها بقميص من قطن، ومن مسكنها ببيت من شعر، وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج إلى علم واسع وحذق

كبير. والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشئون المعيشية، والمرأة العربية كانت مستعبدة؛ لأنها كانت في الحقيقة متاعا يدخل في حوزة الرجل بالسلب، أو بعقد هو أقرب للبيع منه إلى الزواج.

أما الآن فنحن في عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضا، واستقر النظام فيهم، لم تبق الحرب شغلا شاغلا لجميعهم؛ ليدفع بعضهم غائلة بعض، وأصبح الناس غير محتاجين إلى الغزو في كسب أرزاقهم، فبعد أن كانت قيم الرجال تغلو وترخص، وتعلو وتنحط، على حسب غنائمهم في القتال، وحسن بلائهم فيه، وبعد أن كان الفائق في الشجاعة وقوة البأس هو صاحب السلطان الأعلى، والضعفاء كلهم تحت كنفه، انقلب الحال، ولم يبق للقتال حاجة إلا في أحوال مخصصة يتولاه فيها أناس معروفون، وأقبل أفراد الأمة رجالا ونساء، بعضهم على بعض، يتنافسون في أمور أخرى، فمنهم المتنافسون في المجد بالعلم، ومنهم المتسابقون إليه بالثورة، وفيهم المجدون في طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة، واتسع الميدان لتجادل العقول، والمرأة إنسان مثل الرجل زينتها الفطرة بموهبة العقل، فحق لها أن تسمو اليوم

إلى ما يقرب من درجته، إن لم تستطع أن تساويه فيها، ثـم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات، وأصبح المقصر في سـعيه، الساقط في عزمه، القاعد في كسله وجهله مهـددا بـالموت، محفوفًا بخطر العدم، وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد، فأهل البلد الواحد يتزاحمون في طرق الكسب ويتدافعون في سبله بوسائل العمل وحيل العقل، وجميعهم يـزاحم الأجنبـي الذي سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة، وتوافر أسباب الأمن، وما هذا الجهاد بالهين السهل، بل هو ما يحتاج إلـى أعمال القوى العقلية والبدنية أكثر مما يحتاج إليـه القـراع بالسيوف والمراماة بالسهام.

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها إلى قـانون الفطرة، فعرض لها من الحاجات ما لا يمكن معه أن تعـيش مقصورة في بيتها، فهي مضطرة -رغما عنها- أن تدخل ما دخل الرجال فيه وأن تعمل لتكسب وتعيش، وتغلـو وتعلـو، فهي بحكم هذه الضرورة في أشد الحاجات إلى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة في هذه المزاحمة العظيمة.

وما نسمعه الآن من صياح النساء وعويلهن وشكواهن من الرجال لعدم القيام بالإنفاق عليهن، أو اغتيـال حقـوقهن

ومن أحاديث تطوح الكثير منهن في مهاوي الرذيلـة لسـد بعض الحاجات- يؤيد ما قلنا، ويظهر لكل ناظر صواب مـا بينا.

وإنا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده: هل يمكـنهم أن يقولوا: إنه لا حاجة للمرأة تدعوها إلى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة؟ أو يقولوا: إنها في حاجة إلى ذلك، ولكن – واأسفاه، ليس في فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القـوى ما يهيئها لأخذ أهبتها في هذا الجهاد.

هذه المسألة لا تحل ببعض كلمات مثل: كون المـرأة ضعيفة أو قاصرة العقل؛ لأن الضعيف والقـوى وصـاحب العقل الكبير، وذا العقل الصغير، والجاهـل والعـالم كلهـم يستوون أمام ضرورات الحياة، وإنما الذي يفيد في فهم حقيقة هذه المسألة وحلها، هو أن يعرف أولا هل يوجد نساء لـيس لهن عائل يقوم بحاجاتهن، أو يوجد لهن عائل لكن كسـبه لا يكفي لقضاء ما يحتجن إليه؟ ثم إذا كان يوجد نساء من هـذا الصنف فما عددهن، وهل هو كثير أم قليل؟

والذي يمكننا الرجوع إليه في ذلك هو تعـادل أهـالي القطر المصري الذي حصل في سنة ١٨٩٧، وهـو آخـر

إحصاء جرى، جاء في هـذا الإحصـاء أن جملـة النسـاء المصريات اللاتي يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٦٣,٧٣١ أي: أنه يوجد الآن في مجمع المصريات اثنتان في كل مائة امرأة يشتغلن بالزراعة، ولا النساء الأجنبيات اللاتـى بلـغ عـدد المحترفات منهن بصنعة عشرين في المائة.

وغني عن البيان أن هاته المحترفات هن نساء لا عائل لهن لما نعهده من أن الرجـال لا يسـمحون لزوجـاتهم ولا لبناتهم أن يحترفن بصناعة ما لم يكونوا أنفسهم عاجزين عن كل كسب:

وإذا رجعنا إلى مشاهداتنا نجد أن النسـاء اللاتـي لا عائل لهن يزدن عن هذا المقدار أضعافه؛ لأن الأغلب منهن يعيش عالة على أقاربهن، ومنهن من يستعمل لكسب العـيش وسائل لا يعرف بها، وأضيف على هـذا الصـنف أولئـك الزوجات اللاتي لا يكفـي كسـب أزواجهـن لضـرورات معيشتهن ومعيشة أولادهن، فهن مع أزواجهن دائما في نزاع وشقاق، ثم تزدحم أقدامهن في ساحات المحـاكم الشـرعية للمطالبة بالنفقة، فإذا قدر القاضي للزوجة قرشين في اليـوم

صاح الزوج: هذا كثير، وعدد هؤلاء النسوة لا ينقص عـن مجموع من سبقهن.

إذا سلمنا أن عدد النساء المصريات اللاتي ليس لهـن عائل لا يزيد عن اثنين في المائـة مـن مجمـوع النسـاء المصريات، أفلا ينبغي لهؤلاء – النسوة اللاتي قضت عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الأقوياء لكسب عيشهن أن يتهيأن إلى النجاح قبل الدخول في معترك الحيـاة بالوسـائل التي يستعد بها الرجال أنفسهم؟ وهل يكون من الحق والعدل أن يحرمن من التربية التي تؤهلهن للدفاع عن أنفسهن؟ وهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعيـة أن يعـيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات؟

نحن لا نجادل في أن الفطـرة أعـدت المـرأة إلـى الاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد، وأنها معرضـة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسـمح لهـا بمباشرة الأعمال التي تقوى عليها الرجال، بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعيـة هـي أن تتزوج وتلد وتربي أولادها، هذه قضية بدهية لا تحتاج فـي تقريرها إلى بحث طويل، وإنما الخطأ في أن نبني على ذلك

أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم معيشة أولادها إن كـان لهـا أولاد صـغار عنـد الحاجة.

وذلك لأنه يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوجن وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج، ومـن النساء من يكون لها زوج، ولكنها مضطرة إلى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل. ومن النسـاء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد، كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن عن تناول الأشغال الخارجيـة عـن المنزل بحجة أن لهن رجالا قائمين بمعاشهن، أو لأن عليهن واجبات عائلية، أو لوجود عوارض طبيعية تحـول بيـنهن وبين العمل.

نحن لا نقول للمرأة: اهجري الزواج ولا تبغي النسل، أو اتركي زوجك وأولادك في البيت، واقضي أوقاتـك فـي الطرق وعيشي ما يعيش الرجال. فأنا نكرر القول بأننا نـود أن تكون كل امرأة زوجة، وأن تكون كل زوجة أُما، ولكـن هذا لا ينسينا أن الواقع هو غير ما نتمنى؛ إذ الواقع أن عددا عظيما من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية.

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية، فإننا لو أخذنا آخر إحصائية في فرنسا، لوجدنا أنـه يوجـد ٣,٦٢٢,١٧٠ مـن النسـاء غيـر متزوجـات، و ٢٠,٠٦٠,٧٧٨ أرامل و ٩٢٤,٢٨٦ متزوجات، وليس لهن أولاد، أي: يوجد في فرنسا زيادة عن خمسة ملايـين مـن النساء صالحات للعمل، مضطرات إليه، بدون أن يكون فـي أعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن.

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنية في بلادنا، سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج، وبدل أن يوجد اليوم اثنـان في المائة من النساء المصريات يتعيشن بصـنعة أو حرفـة سيوجد عن قريب أضعاف هذا العدد؛ ذلـك لأن الحـوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلـم بمـا سيكون من أمرها في المستقبل.

لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لا بد أن يزداد في كل سنة عن الأخرى؛ لأننا سائرون في الطريـق الذي سارت فيه أوربا قبلنا.

ولا خلاف في أن عدد الزواج في أوربا هو أقل منـه في الشرق، وسبب ذلك أن الواحد منهم لا يتزوج بالسـهولة

التي يتزوج بها الواحد منا، فان الأوربي يطلب من الزوجـة قرينًا يرافقه طوال حياته، وصاحبا يشاركه في جميع أعماله وأفكاره وعواطفه، فهو يطلب لها جميع الصفات التي يبحث عنها الواحد منا إذا أراد أن يتخذ له صديقًا، فـالعثور عليـه يكون صعبا، وأضيف على ذلك سببا آخر، وهو أن الحالـة الاقتصادية في البلاد المتمدنة لا تسمح للفرد أن يكون قـادرا على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين إلا في النادر؛ لأنه يصادف في طريقه مزاحمات عظيمـة، وعليـه أن يخـرق الصفوف التي أمامه، هذا أن ساعده الحظ وحسن الاسـتعداد على نيل مركز في التجارة أو الصناعة أو الحرف الأدبيـة، والكثير منهم يقضي حياته في البحث ولا يجد شيئًا.

ومن الاحتياط عندهم ألا يتزوج الشخص قبل أن يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها على ما يكفي لمعاشـه ومعاش أولاده؛ لأنهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلاتهم، ولا يرضون أن يكونوا سببا في شقاء أزواجهم وأولادهم، فإنمـا الجاهل هو الذي يحمله الطـيش فـي التعجيـل بـالزواج، ويستهين بما تفرضه عليه تلك الزيجة، ولا يعرف لأهله حقا عليه.

فنحن مساقون في هذا الطريق بقوة لا يستطيع أحد مقاومتها، ويظهر لي أن الزواج عندنا قد بدأ في التناقص، فإني أعرف كثيرا من الذكور والإناث تجاوزوا السن الذي يحصل فيه الزواج عادة، ولزمتهم العزوبة مختارين أو مختارين، ولكن لا أدري هل ذلك عام أو خاص ببعض المواضع، وإنما يمكنني أن أحقق أن متوسط السن الذي يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه في الماضي، فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين في الغالب، وكان فيما مضى سن البلوغ، وكثيرا ما كان يحصل الزواج قبله.

وليس يفيد شيئا أن يصبح أرباب الأقلام عندنا ناقمين على ما وصلت إليه حالنا اليوم وما ستصل إليه على مر الأيام وأن يستشهدوا بما وقعت فيه أوربا من نقصان عدد الزواج فيها، واحتراف النساء بأشغال الرجال، ذلك لا يفيد؛ لأنه لا يمكن أن يترتب على هذه الشكوى أثر ما في مجرى الحوادث في العالم ، ولو كانت الشكوى تكفي لتغيير الحال لكان الأمر سهلا!

والحقيقة أن أهم عامل له أثر في حال الأمة هي حالتها الاقتصادية، ومع الأسف هذه الحالة الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويدبرها كيف يشاء.

نعم يوجد والكد والاشتغال بأعمال الرجال، أي: مسترجلات إذا شئت، وهن النساء اللاتي زهد فيهن الرجال فلم يرغب أحد في زواجهن، والأرامل اللاتي توفي أزواجهن، والمطلقات اللاتي تركهن أزواجهن، هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنبا على الهيئة الاجتماعية، فما من واحدة منهن إلا وكانت تتمنى أن تجد رفيقا صالحا يحبها وتحبه، ويساعدها وتساعده، ما من واحدة منهن إلا وتبكي في وحدتها سوء حظها، وتأسف على ضياع الأماني التي قضت حياتها في انتظارها.

ولكن ما الحيلة إذا كان نظام الوجود يقضي بأن كثيرا من النساء يعشن في الوحدة والانفراد، ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت أولادهن وبعض أقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب.

يقول المعترضون: إنهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال، والاختلاط بهم، كما أنهم لا يمنعون

المرأة من التعلـيم إذا كـان لازمـا لكسـب عيشـها؛ لأن الضرورات تبيح التعليم إذا كان لازما لكسـب عيشـها؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات. وقد اتفق جميعهم على هـذا الرأي، حتى حضرة العالم العلامة – (هكذا هو لقـب نفسـه على ظهر كتابه) – الذي انتدب عن فقهاء الأزهر للرد على (تحرير المرأة). فكلهم يرون أن منع المـرأة مـن كشـف وجهها، ومن الخروج من بيتها، ومزاولة أعمـال الرجـال، والاختلاط بهم، ومن التعليم الذي يؤهلها إلى هذه الأعمال هو خاص بغير الفقيرات من النساء اللاتي تلجئهن الضرورة إلى السعي لتحصيل أرزاقهن.

ويتبين من هذا أنهم متفقون معنا في حالة الضـرورة ولكنهم يخالفوننا في غيرها، فهم يرون أن الإباحة يلـزم أن تكون خاصة لهذه الحالة فقط، وبهؤلاء النسوة، ونحن نـرى أنها يلزم أن تكون عامة شاملة لجميع النساء والأحوال.

ولو شاءوا أن يفهموا ما يقولون، وأن يقفوا على مـا يفضي إليه رأيهم هذا، لوافقونا في رأينا وحكمـوا حكمنـا؛ لأنهم يقولون: إن المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الأعمال ما يتناوله الرجال إذا مست الحاجة إلى ذلك. ولا يخفـى أن

كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات. والعمل الذي تدفع إليه الضرورة وتحمل عليـه الحاجـة لا يكفي في القيام به على الوجه اللازم أن تتوجه المـرأة إليـه وتدخل فيه، بل يلزم قبل الدخول فيه أن تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والإتيان به على وجه يوصل إلـى المرغوب، وهذا الاستعداد لا يكـون إلا بالتربيـة والعلـم، والتمرين والممارسة، واختبار الناس. فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيهـا لـم تسـتطع للخلاص منها سبيلا. وكان حرمانها من هذا التأهب عبـارة عن تسليمها للهلاك.

ويا عجبا! كيف نتوقع الخيبة للرجل منا إذا كان ناقص التربية، قليل المعرفة، عديم الاختيار، ولا نتوقع تلك الخيبـة للمرأة إذا اشتركت معه في هذه النقائص؟!

وحوادث الفقر، والطلاق، وموت الـزوج، والعزوبـة كلها حوادث جارية، وتقع في كل آن، ولما كـان الاطـلاع على الغيب أمرا غير ميسور للإنسان وجب أن تستعد كـل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع فيها.

لهذا نرى أن من أهم ما يجب على الآبـاء أن يعـدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شـرها ويقـي مـن ضررها، ويمهد لهن سبيل الوصول إلى حظ من السعادة في هذه الحياة.

نعم، نرى أنه يجب على كل أب أن يعلم ابنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن، وأن يعتني بتربيتهـا كمـا يعتنـي بتربية أولاده الذكور، فإذا تزوجت بعد ذلـك فـلا يضـرها عملها بل تستفيد منه كثيرا، وتفيد عائلتهـا، وإن تتـزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيـرة الوقوع، أمكنها أن تستخدم معارفها فـي تحصـيل معاشـها بطريقة ترضيها، وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها.

وسواء نظرنا إلى الفوائد المادية التي ينالها صـاحب العلم من علمه، أو نظرنا إلى اللذة المعنويـة التـي يـذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب.

بين يدي الآن كتاب ألفه أحد الكتاب الفرنساويين وهو (بول دروزيه) وسماه (الحياة الأمريكية) قال فيه عند الكلام عن تربية البنات ما يأتى:

"رأيت في أمريكا الصبيان والبنات يذهبون إلى مدرسة واحدة، ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم بجانب بعـض، ويسمعون دروسا واحدة ويرتاضون معا، فإذا أتموا دروسهم استمر هذا الاختلاط حيث ترى البنات في المعامل والمصانع يشتغلن ويستخدمن في (اللوكاندات) الكبيرة لمسـك الـدفاتر ويربين الأطفال في المدارس الابتدائية، ويطلبن العلـم فـي مدارس الطب، وترى منهن قسيسان يخطـبن فـي الطـرق وأعضاء في الجمعيات الخيرية، ورئيسـات فـي المجـالس البلدية، وما أشبه ذلك، إذا أردت أن تعرف ما هو سبب هذه العادات العربية، وما هو المقصود من تربية النساء على هذه الطريقة، وما هي الواجبات التي يتأهبن لأدائها بهذه التربيـة فعليك أن تتأمل في هذه المسألة لكي تقف على سرها.

إذا فكرت فيها تعلم أنه يوجـد تيـاران متعاكسـان يقابلهما حالتان للمرأة مختلفتان، وبيان ذلك أن بقيت عزبـة تضطر إلى أن تجاهد في سبيل الحياة كالرجل الذي يناضلها، فأحسن تربية توافقها هي تربية كتربيـة الرجـال، أمـا إذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجهـا، وهـي تشـتغل بإدارة منزلها وتربية أولادها، ولكن من ذا الذي يعلم مستقبل

البنت، وهي في السنة العاشرة من عمرها؟ وما الذي يعلمـه الآباء أمام هذا المستقبل المجهول؟ رأى الأمريكـان أن مـن الفطنة أن يعملوا كأن بنـاتهم لا يتـزوجن، وأن يربـوهن كالذكور من جهة التعليم والاسـتقلال فـي السـير، فـالأب الأمريكي يربي ابنته على أن تعتمد على نفسها؛ لأنه يجعلـه مستقبلها، فإن صادفت زوجا يريد أن يضع يده فـي يـدها ويقطع معها طريق الحياة كانت هذه التربية أحسن ما يؤهلها للقيام بواجباتها العائلية، وإن لم يوجد أحد يرغب الاقتران بها فقد خاص الأب من اللائمة؛ حيث إنه تبصر فـي المسـتقبل وعمل ما يمكن أن يعمل ليعدها للغلبة على ما تلاقيه أمامهـا من الصعاب ومرارة الحياة".

ويوجد حرفتان أود أن تتوجه نحوهما تربيـة البنـات عندنا:

الأولى: صناعة تربية الأطفال وتعليمهم. هذه الصنعة هي أحسن ما يمكن أن تتخذها امرأة تريد أن تكسب عيشها؛ لأنها محترمة شريفة، والمرأة أشد استعدادا لها من الرجـال وأدرى منه بطرق استمالتهم، واكتساب محبتهم، وبلادنا أشد البلاد حاجة إلى نساء يعرفن هذه الصناعة، فإنه لا يكاد يوجد

عندنا امرأة يوثق بها في تربية الأولاد، والعائلات المصرية في احتياج إلى عدد من مربيات الأطفال؛ حتى تستغنى بهـن عن المربيات الأجنبيات، كذلك لا يوجد في مصر مـدارس للبنات تتولى إدارتها والتعليم فيها مصريات، وهـذا نقـص كبير في بلادنا حيث أننا جميعا مضطرون إلى تربية بناتنـا في المدارس الأجنبية.

والحرفة الثانية: هي صناعة الطب، كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التي يكابدها عندما تكون إحدى النساء مـن أقاربه مريضة ويلح عليها أن تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصا إذا كان المرض من الأمـراض الخاصـة بالنساء. فإذا وجد عدد من النساء يعرفن صناعة الطب فـلا شك أن صناعتهن تروج رواجا عظيما بما يجدنه من الحاجة إليهن في البيوت المصرية. وهنا نقول أيضا: إن فن الطـب هو من الفنون التي تلائم استعداد النسـاء الطبيعـي، ومـا نشاهده الآن في المستشفيات العمومية وفي العـائلات مـن الخدمات الجليلة التي تقوم بها النساء هي أعظم برهان علـى أن المرأة بما جبلت عليه من الرأفة والجلد والاعتناء الشـديد

صالحة لمثل ما يصلح له الرجال من معالجة الأمـراض، إن لم تكن أشد صلاحية لذلك منهم.

كذلك يمكن للمرأة أن تشتغل بجميـع الأعمـال التـي قوامها الترتيب والتنظيم ولا تحتاج إلـى قـوة العضـلات والأعصاب كالتجارة فكم من بيوت تجارية ارتفعت بأيـدي النساء بعد أن كانت سقطت من أيدي الرجال، وكذلك يمكـن للنساء مزاولة جميع الحرف الأدبية.

أن المرأة المصرية إذا احتاجت اليـوم إلـى كسـب معاشها بنفسها لا تجد عملا تتناول منه ما تقتات به إلا بعض الأعمال الشاقة السافلة كالخدمـة فـي بعـض البيـوت، أو الجولان في الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة، فمنع النسـاء عن الاشتغال بما يشتغل بـه الرجـال كأنـه فـي الحقيقـة تخصيص لهن بمثل هذه الأعمال الدنيئة التي لا ينال بها إلا القليل التافه، وحرمان لهن من الأعمال الشريفة التي تعـود على أربابها بالمكاسب الوافرة.

هذه المنزلة المنحطة هي التي نريد استبدالها بـأرفع منها.

يجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها –أولا– لا لأن تكون متاعا لرجل ربما يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها.

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل في المجتمع الإنساني وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء.

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها في نفسها لا في غيرها.

بماذا نقابل رجلا ينصحنا بقوله: ربوا أبناءكم ليكونوا أزواجا فقط، ولا تعدوهم إلا للزواج؟ لا ريب أننا نقابله بالسخرية والاحتقار؛ لأننا نعلم أن الرجل لا بد له -أولا- أن يكون إنسانا مستعدا لأن يلاقي من المشاق والمصاعب ما يلاقيه الإنسان، وأن ينال من السعادة ما يليق بالإنسان أن يناله، فمتى تعلم وصار قادرا على كسب عيشه، وكان متجملا بحسن الأخلاق، كان بالطبع زوجا صالحا، فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا: أعدوا بناتكم لأن يكن فراشا فقط، ولا تعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها؟!

نتج من كل ما تقدم أن للمرأة حقًا في أن تشتغل بالأعمال التي تراها لازمة للقيام بمعاشها، وأن هذا الحق

يستدعي الاعتراف لها بحق آخر وهو أن توجه تربيتها إلـى الطرق التي تؤهلها إلى الانتقال بجميع قواها وملكاتها. وليس معنى ذلك لزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجـال وإنمـا معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجـة إليه.

الواجب على المرأة لعائلتها

إلى هنا كان كلامنا في التربية والأعمال التـي لا بـد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها. ونريـد الآن أن نتكلم على الأعمال والتربية التي تلزم للمرأة لتكون نافعة في عائلتها.

وجميع الناس متفقون على أن قوام العائلة ونظامها في يد المرأة، ولكن ليس كل كالناس سواء في فهم هذه القضية، فالجمهور الأعظم من الناس يفهمون أن معنى ذلك هـو أن تقوم المرأة بخدمة زوجها وأولادها إن كانت العائلة فقيرة، أو تدبر أعمال الخدمة للذين يـؤدون هـذه الأعمـال بـأوامر تصدرها إليهم ومراقبتها لهم إن كانت العائلة غنية.

إلى هذا الحد يقف فكرهم:

هكذا بخسنا المرأة حقها في جميع الأحوال، فبعـد أن حرمناها حريتها وأفقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال إلى أن ضيقنا دائرة أعمالهـا، حتـى فـي العائلة. وهذا أقوى دليل على أن كل ما يختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض، فالمرأة المهذبة الحرة هي التي يمكـن أن يكون لها نفوذ عظيم فـي عائلتهـا، والمـرأة الجاهلـة

المستعبدة لا يمكن أن يكون لها من النفوذ في عائلتها أكثـر مما يكون لرئيسة الخدم في البيت.

ظن المسلمون أن تمتع المرأة بحريتها، واشتغالها بمـا يهتم به الرجال والتوسع في تربيتها يفضي إلى إهمالها فـي القيام بما يجب عليها في الشئون العائلية، فوضعوا بينها وبين العالم الخارجي حجابا تاما؛ حتى لا يشغلها شيء عن معاشرة زوجها وإدارة منزلها وتربية أولادها. ولكن انظر إلى النتيجة تجد أنها خلاف ما قصدوه؛ حيث إن المـرأة المصـرية لا تعرف كيف تعاشر زوجها، ولا يمكنها أن تشتغل بإدراة بيتها ولا تصلح لأن تربي أولادها.

ذلك لأن جميع أعمال الإنسان مهما اختلفت وتنوعـت هي صادرة عن أصل واحد وهو عمله وإحساسه، فإن كـان هذا الأصل راقيا كان أثره في كل شيء كبيرا نافعا حميـدا وإن كان منحطًا كان أثره في كل شيء حقيرا ضـارا غيـر محمود.

فالوظيفة الحقيرة التي تؤديها المرأة المصرية عنـدنا اليوم في العائلة هي لمنزلتها من ذلك الأصل المتقدم ذكـره، ولكن عجز نسائنا الآن عن القيام بالأعمال التـي ينبغـي أن

تناط بهن لا يحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكـم باستحالة بلوغهن إلى الحد الذي يرجى لهن.

فعلى المرأة واجبات غير ما يظن الجمهـور عنـدنا، وأهم هذه الواجبات هي: تربية الأولاد:

إذا أردت أن تعرف مقدار جهل الأمهات عندنا بأبسط مبادئ التربية، انظر إلى إحصائيات وفيات الأطفـال عنـدنا وإحصائيات تلك الوفيات في مدينة مثل (لوندره) تجد أن عدد الموتى من أطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من أطفـال مدينة (لوندره) وقد اطلعت على إحصائية مصـلحة عمـوم الصحة التي نشرت في هذا العام فوجدت أن عدد المتـوفين بين الأطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هـو فـي مدينة القاهرة ١٤٥ في الألف ويقابل ذلك في مدينة (لوندره) ٦٨ في الألف.

فإذا كانت صحة أولادنا، ومرضهم وحياتهم ومـوتهم متعلقا بالطريقة التي يتبعها النساء في تربيتهم، أفلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأي أن نكل أولئك الأولاد إلـى مـا يقترحه الجهال، ونتركهم إلى خرافات المراضـع ونصـائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء؟!

إن الأمهات الجاهلات يقتلن في كل سنة من الأطفـال ما يربو على عدد القتلى في أعظم الحروب! وكثيـر مـنهن يجلبن على أولادهن أمراضا وعاهاتٍ مزمنـة تصـير بهـا الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم، وليس لهذا البلاء سبب في الأغاب سوى جهل الأمهات بقوانين الصحة، لو كانت أم الطفل تعرف أن كل ما يتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسـه ونومه ولعبه له أثر على جسمه، لأمكنها أن تتخذ له وقايـة من العلل بقدر معارفها الصحية، ولو علمت كل أم أن أغلب الأمراض التي تنهك جسم ولدها لا تصيبه من غير سـبب، وأنها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت في وقايتـه من كل من شأنه أن يضر ببدنه، ولكن كيف تصل إلى معرفة ذلك من جهلها الذي يخيل لها أن المسببات تقع بلا أسباب أو تحصل بأسباب خارقة للعادة؟!

لا ينبغي هنا أن أشرح بالتفصيل كل ما يليق أن يعرفه القراء في هذا الموضوع، وإنما نقول بالإجمال: إن التربيـة الجسمية للولد وحدها تستدعي معارف كثيرة، يتعلق أغلبهـا بقوانين الصحة، وأن معرفة هذه القوانين تحتاج إلى مقـدار عظيم من معارف أخرى لابد منه ليتيسر فهمها.

فعلى الأم أن تعرف أفضل الطرق لتغذية الأطفال؛ لأن الانتظام في نمو الجسم يرتبط دائما بانتظام التغذية، وجـود الأنسجة، وخصوصا النسيج المخي، تتعلق بجـودة التغذيـة حتى قال بعض علماء الطب: إن الأمم التي تفضل غيرها في التغذية تفوق سواها في القوة، وتتغلب على غيرها من الأمم.

وعلى الأم أن تعرف كيف تقي جسـم ولـدها مـن أعراض الحر والبرد، وما هو الماء الذي ينبغي استعماله في نظافة جسمه من حار أو فاتر أو بارد، وعليها أن تعرف أن للهواء والشمس أثرا حميدا في الصحة، فلا تحرمه من التمتع بهما. وهكذا يقال في الأشياء الأخرى كالنوم واللعـب ومـا أشبه ذلك.

ثم يجب عليها من فترة إلى أخرى أن تكون على علم تام بنفس الطفل، ووظائف قواه العقلية والأدبية، وإلا كانـت أول عامل في فساد أخلاق ولدها.

انظر إلى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده ممـا لا يصدر عن إنسان عاقل يقدر لعمله نتيجة، مثال ذلك أنهـا تمنعه من اللعب كي لا يشوش عليها، وهي لا تـدري أنهـا بمنعها إياه من اللعب تقف في سـبيل نمـوه، وإذا أرادت أن

تؤدبه هددته بما لا تستطيع أو بما لا تريد أن تنفذه أو خوفته بموهومات تثير في ذهنه خيالات ربما لازمته مـدة حياتـه، وإذا أرادت أن تكافئه، وعدته بوعود لا تفي بها، فتكون لـه بذلك قدوة في الكذب، وتحدث في نفسه ضعف الثقة بالقول، وهي في أغلب حالاتها تظهر الغضب عليه، وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد، كأنها تريد أن تثبـت لـه بأقوى الدلائل أنها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواهـا، وربما كان السبب الذي أثار غضبها لا يستحق من ذلك كلـه شيئًا، فإذا رأت منه انفعالا مما صدر منها لم تلبث أن تضمه وتقبله، وتظهر له غاية الندم على ما صدر منهـا، والولـد المسكين لا يدري كيف استحق غضبها أولا، ثم رضاها ثانيا.

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالأمهات، بل تجد كثيرا من الآباء عندنا؛ لجهلهم بالطبيعة الإنسانية يسـتعملون فـي تربية أولادهم طرقا لا تقل فـي الشـناعة والسـخافة عمـا تستعمله النساء. ومن أقبح ما يصنعه كثير من الآبـاء مـع أبنائهم، أن يشتم ويسب الوالد ولده بألفاظ لا يـدري الطفـل معناها، فيجيبه الولد بمثلها، فإذا أحسن الإجابة ضحك أبـوه مسرورا، واستبشر بنجابة ولده!

وكذلك ترى الواحد يأمر ولده أمـرا لا داعـي لـه فيخالفه الطفل فينقض عليه كالوحش فاقد الشعور، ويضـربه في أي مكان يصادفه من جسمه، ولم يكن ذلك إلا لأنه يرى في عدم طاعة ولده إخلالا بسلطته وامتهانا لعظمته.

ولو كان هذا الأب يعقل ما يفعل وعلم أن كل ما يعود عليه الطفل في نشأته يحدث في نفسه أثرا يكون مبدأ لملكـة راسخة فيها، لما عوده على ما لا يحسن أن يراه منـه فـي كبره، ولو علم أن المقصود من التربية ليس أن يتعود الطفل على أن يطيع كل أمر يصدر إليه، وإنما الغـرض منهـا أن يتعود على أن يحكم نفسه لاجتنب الأمر والتهديد والضرب، فإن هذه الوسائل لا تهيئ الطفل إلى أن يحكم نفسـه، وإنمـا يتمرن الطفل على أن يحكم نفسه إذا اجتهد أبواه في إقناعـه وتنبيه عقله إلى عواقب أفعاله؛ حتى يتولد في نفسه اعتقـاد ثابت بأن ما يصيبه من خير أو شر فهو من كسبه.

أفضل طريق للتربية يؤدي إلى هذه الغاية (أن يحكـم الشخص نفسه) هي أن يترك الطفل وميلـه، يعمـل العمـل حسب ما يسوقه إليه خاطره، ولا يتداخل المربي إلا ببيان ما ينتج عن هذه الأعمال بصورة نصيحة وإرشـاد، فـإذا لـج

الصبي في مخالفة النصيحة تركه حتى يقع في عاقبة عمله، لكن مع المراقبة الدقيقة؛ كي لا يكون ضرر العمل شديدا، وإنما يسوغ الردع والمنع في الأحوال النادرة التي يعرض الصبي نفسه فيها للخطر.

بهذه الطريقة يستعد الطفل إلى أن يكون رجلا يعتمد على نفسه في الوقت الذي لا يجد بجانبه أحدا يدفع عنه ويحافظ عليه.

يمكنني أن أقرر بوجه الإجمال حقيقة أود أن يطلع عليها كل أب وأم، وهي أن جميع العيوب التي تشاهد عند الأطفال، مثل الكذب والخوف والكسل والحمق، هي ناشئة من جهل أبويه بقواعد التربية، وأن من السهل إزالة هذه العيوب بالوسائل الأدبية، وقد يتوصل لإزالتها بالوسائط الطبية.

إذا كانت وقاية الطفل من الأمراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج إلى معلومات كثيرة كما ذكرنا. فالوقوف على غرائز الطفل الطيبة وغرض الصفات الحميدة في نفسه يحتاج إلى معارف أدق ومعلومات أوفر.

يظن الجمهور الأعظم من الناس أن التربية من الهنات الهيئات، ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أن لا شيء مـن الشئون الإنسانية -مهما عظم- يحتاج إلى علـم أوسـع ولا نظر أدق ولا عناء أشق مما تحتاج إليه التربية، أما من جهة العلم فلأنها تحتاج إلى جميع العلوم التي توصل إلى معرفـة قوانين نمو الإنسان الجسماني والروحاني، وأما مـن جهـة المشقة والعناء، فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حـال الطفل من يوم ولادته إلى بلوغه سن الرشد يحتاج إلى صبر ومثابرة في العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتـاج إليها عمل آخر.

لا يؤخذ من ذلك أني أذهب إلى أن كل أم يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة، ولكن أقول: إن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها، وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول تلك العلوم وفروعها، زادت قوة اسـتعدادها لتربيـة أولادها.

يرى أني أهملت شان الآباء عند الكلام على التربيـة وليس ذلك من باب السهو؛ بل لأن مدار التربية كلها علـى الأم، فالولد ذكرا كان أو أنثى، من وقت ولادته إلـى سـن

المراهقة، لا يعرف قدوة له سوى والدته، ولا يعاشر غيرها، ولا يرد على حواسه إلا الصور التي تعرضه لهـا، فنفسـه صحيفة بيضاء، وأمه تنقشها كما تشاء، ويتم نقش الصـحيفة وتكون كتابا مسطورا عندما يبلغ الطفل سن الرابعة عشـرة، كما قال (ألفونس دوريه) وليس في إمكان الناشئ بعد ذلك أن يضيف على ما رسا في نفسه، أو ينقص منه إلا شيئا قليلا لا يترتب عليه تغيير الكتاب.

هذا السر في احترام الغـربيين نسـاءهم، وتقديسـهم أمهاتهم. فهم يعلمون أن كل ما هم عليه من الصفات الحسنة والأخلاق الطيبة، هو من فضل أمهاتهم اللاتي أودعن فـيهم بضعة من أرواحهن، وهي خير بضعة كانت عندهن، إن كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميـل إلـى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره، ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان، إن كان يوجـد بيـنهم مـن حواسه ليست إلا الصور التي تعرض لها، فنفسـه صـحيفة بيضاء وأمه جعلت الترتيب والنظام قاعـدة عملـه، والجـد والاجتهاد مشتهي نفسه، إن كان فيهم من يجـد فـي نفسـه احتراما لدينه وتكريما لشأن وطنه وشوقا إلى طلب الكمـال

في كل شيء، فليس ذلك لأنه قرأ في الكتب أو تعلم في المدرسة أن هذه الصفات ممدوحة، ولو كان الأدب يعلم بالحفظ لكان إصلاح العالم من أسهل الأمور، وإنما كان ذلك لأن والدته أرادت أن يكون على هذه الصفات، وكابدت ما لا يوصف من المتاعب لطبعها في نفسه وتثبيتها في طبعه.

فهي التي كانت تحرص ألا يقع تحت حواسه صورة قبيحة، وهي التي كانت تقدم إليه صور الأشياء الجميلة على أشكالها المختلفة، وهي التي كانت تعوده على العادات النافعة شيئا فشيئا حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات في الأرض.

هذه الوظيفة التي تقوم بها الأمهات في تلك البلاد هي أهم وأنفع ما يعمله إنسان حي على وجه الأرض، إذن لا يوجد شيء أهم ولا أنفع من تهذيب نفوس الأطفال وإعدادهم لأن يكونوا رجالا صالحين.

من هذا يتبين أن عمل المرأة في الهيئة الاجتماعية هو تكوين أخلاق الأمة، تلك الأخلاق التي أثرها في الاجتماع، من حيث ارتقاء الأمم وانحطاطها، يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات.

لهذا لا يوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة فـي الوجود الاجتماعي وشأنها في العائلة ولا بأس من أن نـورد هنا شيئا من كلام بعض فلاسفتهم؛ لنبين للقراء منزلة النساء في رأيهم.

قال (سيماس): " للمرأة في تهذيب النوع الإنساني أكثر مما لأي أستاذ فيه، وعندي منزلة الرجل في النوع من منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منزلة القلب".

وقال (شيلر)[1] " كلما وجد رجل وصل بعملـه إلـى غايات المجد، وجدت بجانبه امرأة محبوبة ".

وقال (روسو)[2]: " يكون الرجال كما تريد النساء، فإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوي الهمة والفضيلة، فعلّم النساء الهمة والفضيلة ".

وقال (فنلون): "إن الواجبات التي تطالب بهـا النسـاء هي أساس الحياة الإنسانية فالمرأة تدير جميع شئون العائلـة،

---

(1) فريدريخ فون شلير (١٧٥٩ – ١٨٠٥م) شاعر وكاتب مسرحى ومؤرخ وفيلسوف المانى لحن بيتهوفن بعض أناشيده.

(2) جان جالوك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسى، تعتبر أراؤه من الأفكار التي مهدت لقيام الثورة الفرنسية، وهو صاحب كتاب (العقد الاجتماعى) كما اشـتهر باعترافاته.

وبهذا العمل يكون لها أعظم نصيب في إصلاح الأخـلاق أو إفسادها، ليست الأمة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل، وإنمـا هي مجموع العائلات، وما من أحد يمكنه أن يهذب العائلـة سوى المرأة".

وقال "لامارتين": " إذا قرأت المرأة كتابا فكأنمـا قـرأ زوجها وأولادها ".

وأمثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة، وما ورد في مؤلفاتهم لبيان ما للمرأة من الأثر في إصلاح أخلاق الأمم بلغ من الكثرة حدا بحيث لا تمكن الإحاطة به.

ومن الغريب أن الكثير من شبابنا الذين لهم إلمام باللغة الأجنبية والذين لا بد أن يكونوا قد اطلعوا على بعض هـذه المؤلفات يرون أني بالغت في إعلاء شأن المـرأة وتعظـيم وظيفتها، بل كان من أمر بعضهم أن احتقر رأينا، وعده من سقط المتاع الذي لا يليق بأن ينظـر فيـه. وكـان العـالم الأزهري الذي رد على كتاب (تحرير المرأة) قد عبر عـن أفكارهم عند قوله:

" ما سمعنا في تاريخ من التواريخ، ولا في سفر مـن الأسفار، ولا في خبر من الأخبار أن أمة من الأمم أو دولـة

من الدول تقدمت بنسائها وارتفع شأنها بإناثها، وهذه الـدول الأوربية ارتفعت في هذه الأيام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف والصنائع، واختراع الأمور العظيمة التي عم نفعها، فأي شيء من هذه العلوم والمعارف، وأي أمر من مخترعات الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء؟

والذي يقرأ هذه السطور يحق له أن يظن هذا العـالم الأزهري وأمثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الأسفار ولا خبر من الأخبار!

فالنساء اللاتي خلد التاريخ ذكرهن لشهوتهن بـالعلوم والمعارف، أو بالأعمال العظيمة لسن بذوي العـدد القليـل، وتوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهن، وليس في إمكاننا أن نأتي هنا على ذكر أعمال بعض من اشـتهر مـن النساء في التاريخ، وربما تسمح لنا الفرصة كتاب لذلك، إنما يمكننا أن نؤكد هنا إلا أنه لا يوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا وقد برهنت المرأة فيه على أنها مستعدة لأن تصل إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني.

وإني أستلفت العالم الأزهري خصوصا إلى سلف أمته الصالح ليعلم أن تاريخ دينه لم يخل من ذكر النساء اللاتـي كان لهن أجمل الأثر فيه.

على أن الأمر لا يحتاج تحقيقه إلى التاريخ، فقد وجـد في القرن الذي نحن فيه كثير من النساء اللاتي ارتفع شأنهن وذاع ذكرهن في جميع الممالك المتمدنة.

هذه (مارية متشل)[1] اكتشفت نجما ذا ذنـب سـمي باسمها، وعينت مديرة (الرصد خانه) في أمريكـا، ومعلمـة لعلم الفلك، ولها مؤلفات كثيرة في هذا لعلم.

و (كارولين هرشل)[2] اكتشفت سبعة نجوم، فمنحهـا مجمع علمي بـ (لوندره) الميدالية الذهبية.

و (تريز دويافير) لها مؤلفات عظيمة فـي الجغرافيـا وفي علم طبقات الأرض، وكانت عضوا في المجمع العلمي بمدينة (منخ).

و "صوفي جرمين"[3] لها اختراعات جليلة في العلـوم الطبيعية.

---

[1] ماريا ميتشل (١٨١٨ – ١٨٨٩م).

[2] كارولين لكرشيا هرشل (١٧٥٠ – ١٨٤٨م)

[3] (١٧٧٦ – ١٨٣١م) وهي فرنسية.

وكل أهل العلم يعلمون أن (المركيزة دوشاتليه) هـي التي نشرت مذهب نوتوني[1] في فرنسا (وكلمنس رويه) هي التي نشرت مذهب (داروين) و (مدام استيل) هي أول مـن عرف ألمانيا لأوربا، وكذلك (مدام تارنوسكي) هـي التـي نشرت مذهب (لمروزو) في البلاد الروسية.

أما عدد الفلاسفة والأدباء من النساء اللاتي نشأن فـي هذا القرن الذي سبق لا يمكن حصره في مثل هذا الكتـاب، ولكني لا أرى بدا من ذكر اثنتين من بينهن لم يسبقهما رجل في فن الكتابة، وهما (مدام لا فايت)[2] و (جورج سند).

على أن الارتباط الذي ادعيناه بين تقدم الأمم وارتقـاء حال النساء، لم نقصد به أن المـرأة تفيـد الأمـة مباشـرة باختراعاتها العلمية، ومذاهبها الفلسفية، وإنمـا نعنـي بـه بخاصة ما لها من العمل في إصلاح العائلة ثم الأمـة علـى الوجه الذي بيناه.

---

[1] إسحاق نيوتن (١٦٤٣ – ١٧٢٧م) إنجليزي، اشتهر باكتشاف قانون الجاذبية، وهو أعظم علماء عصره.

[2] ماري لافايت (١٦٣٤ – ١٦٩٢م) روائية فرنسية، صاحبة رواية (أميرة كليف).

بعبارة أخرى نقول: إن ظهور رجل عـالم أو حكـيم فاضل في أمة يعد من الحوادث التي يشترك فـي أحـداثها سببان:

الأول: استعداده بالوراثة لما ظهر فيه:

والثاني: تربيته التي ساعدت على نمو هذا الاسـتعداد فيه، بحيث لو فقد أحد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم أو الفاضل.

من هذا يتبين أن شخصية الإنسان الأدبية تتكون مـن عاملين عامل طبيعي، عام صناعي، وليس في استطاعتنا أن نؤثر في الأول، ولنا على الثاني سلطة واسعة؛ حيـث إنـه يمكننا بالتربية الأولى أن ننمي غريـزة الطفـل، إن كانـت غريزة صالحة، ونكملها ونزيدها حسنا، ويمكننا أن نضـعف من أثرها أن كانت بضد ذلك، نعم أن لهذه السلطة الثانية حدا تنتهي إليه، ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعا عظيما إذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتـدينا إلـى طـرق التربية الصحيحة.

فهذه التربية الأولى – وزمامها في يد المرأة – هـي التي أكسبتها ذلك المقام الرفيع الذي لا يعلوه مقام في الهيئـة الاجتماعية.

وليس تأثير المرأة في العائلة مقصورا علـى تربيـة الأطفال، بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر على جميع مـن يعيش حولها من الرجال، فكم من امرأة سهلت على زوجهـا وسائل النجاح في أعمالـه، وأعـدت لـه أسـباب الراحـة والاطمئنان؛ ليتفرغ لأشغاله، وكم من امرأة شاركت زوجها أو أخاها أو والدها في متاعبه، وكم من امرأة طيبـت قلـب الرجل وقوت عزيمته في حالة اليأس والقنوط، وكـم رجـل طلب المجد ومعالي الأمور طمعا في إرضاء محبوبته، فبلـغ الغاية مما طلب.

وضع (استيوارت ميل) في صـدر كتابـه المسـمى (الحرية) الذي طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية:

" إني أهدي هذا الكتاب إلى الروح التي ألهمتني أحسن ما وضعته من الأفكار، إلى صديقتي وزوجتي التـي كـان غرامها بالحق والعدل أعظم ناصر لي، والتي كان استحسانها من أكبر المكافآت التي أرجو نيلها على عملي، كان لها فـي

جميع ما كتبته إلى الآن، ولها في هذا الكتـاب حصـة مـن العمل لا تنقص عن حصتي فيه، وأكبر أسفي أن هذا الكتاب طبع بالحالة التي هو عليها الآن قبل أن تعيد النظر فيه، ولو كان في استطاعة قلمي أن يعبر عن نصف ما دون معها من الأفكار العالية، والوجدان السامي لانتفع العالم به أكثر ممـا ينتفع بجميع ما أكتبه صادرا عن فكـري ووجـداني بـدون مشورة عقلها الفريد ".

وكانت زوجة (باستور)[1] الشهير مشاركة له في جميع مباحثه العلمية وبنت (لمبروزو) تشتغل إلى الآن مع والدها، ومن هذا القبيل أن (مارك) الشهير فقد بصره فلم يجـد لـه معينا على معيشته إلا ابنته، فكانت تلقي دروسـا بـالأجرة، وتمد والدها بما تكسب من دروسها، ثم إنها كانت تحثه على إتمام بحثه العلمي، وتكتب ما يمليـه عليهـا؛ حتـى صـار بمعونتها من أشهر علماء التاريخ الطبيعي.

هذه الأمثلة، وغيرها مما يطول شرحه، تدلنا على أن المرأة المهذبة يمكنها، فضلا عن تربية أولادهـا، أن تعمـل

---

[1] لويس باستير (١٨٢٢ – ١٨٩٥م) الكيماوي الفرنسي صاحب الأبحاث التي نشأت عنها (البسترة) والتي أدت لزوال عقدة (التولد الذاتي).

كثيرا من الأعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم، وأي مصلحة للرجال أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليـل والنهار، في الإقامة والسفر، في الصـحة والمـرض، فـي السراء والضراء ، رقيقة ذات عقل وأدب، عارفة بحاجـات الحياة كلها، تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومسـتقبل أولادها، تدبر ثروته، وتحافظ على صحة وتدافع عن شرفه، وتروج أعماله، تذكره بواجباته، وتنبهه إلى حقوقه، وتعرف أنها باجتهادها تجد في منفعتها كما تجد في منفعـة زوجهـا وأولادها؟

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياتـه، وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها، ويتمنـى رضاها، ويتوسل إليها بفضائل الأعمال، ويدنو منها بعقائـل الصفات ومكارم الأخلاق، صديقة تزين بيته، وتبهج قلبـه، وتملأ أوقاته، وتذيب همومه؟

هذه الحياة التي لا يشعر الرجال عندنا بشيء منها هي من أعظم الينابيع للأعمال العظيمة، وأقول ولا أتـردد فيمـا أقول: " إذا لم تبلغ رقة الإحساس عندنا إلـى حـد يـرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا، واستمر الرجـال

على إهمال النساء وتركن في هذه الحالة الساقطة التي يتـألم الكل من آثارها وهم لا يشعرون، ولم يبادروا بإعداد المـرأة بالتربية إلى أن تكون رفيقة مساوية للرجل، وعشيرة عارفة بإدارة بيتها وصديقة تفدي زوجها بأعز مـا لـديها. وأمـا محيطة بما يجب عليها لأولادها، عارفة بطرق تربيتهم، فكل ما فعلناه إلى الآن وكل ما نفعله في المستقبل لترقيـة شـأن أمتنا يضيع هباء منثورا!

هذا هو الحق الذي انتهينا إليه عند بحثنا عن أسـباب تأخر الأمم الشرقية عموما والإسلامية خصوصا.

هذا الرأي الذي عرضناه على القـراء أولا، نعرضـه عليهم الآن مرة ثانية، وكل ما نرجوه منهم هو ألّا يضربوا به عرض الحائط كما أشار عليهم كثير من أصـحاب الأفكـار والكتاب الذين طعن أغلبهم في كتاب (تحرير المرأة) قبل أن يقرؤه.

لا خلاف في أن الأمم الإسلامية فـي حالـة ضـعف تستدعي المبادرة إلى علاجها، فيتعين علينا أن نشخص هـذا الداء بمعرفة أسبابه أولا، ثم نبحث عن دوائه، كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض، فما هي أسباب الداء؟.

أسبابه تنحصر إما في الإقليم، أو في الـدين، أو فـي العائلة، أما الإقليم فلا يصح أن يكون سبب الداء؛ لأنه مـن المعلوم أن الأمة المصرية من أقدم الأمـم، ويعتـرف لهـا المؤرخون بالسبق في الابتكار ثم إلى العرب ثم إلى أوربـا. وظهر فيها أول دين كبير في العالم، وتمتعت مـدة قـرون بمدينة مشهورة لا تزال آثارها إلى الآن، وستبقى خالدة فـي ما لا يزال، وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة أجيال، بـل أتى عليها زمن تغلبت فيه على ما جاورها، وبعد عنها مـن الأمم العظيمة، وقهرتها وأخضعتها لحكمها.

ثم بعد فقد استقلالها حافظت على وجودهـا وهيئتهـا رغما عما طرأ عليها من المتقلبات والمظالم والمصائب التي توالت عليها، وهذا يدل على أنها وهبت في طبيعتهـا حيـاة قوية، وأنها مستعدة للمقاومة في المزاحمة مع الأمم الأخرى، فإذا كان الإقليم لم يعق الأمة المصرية عن إتيانهـا بـأعظم الأعمال، ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنـون، فلماذا يصير مانعا لها من الترقي في هذه الأيـام التـي قـد تلاطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الإقليم؟

على أنه لم يثبت بأدلة صـحيحة يسـندها العلـم أن الحرارة تؤثر في الجسم والعقل تأثيرا سيئا وغاية مـا ينشـأ عن اختلاف الأقليم تفاوت في الأمزجة والأخلاق بين الأمم، فمن المشاهد أن سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة، وهذه الصفات النفسية تعرضهم ما قد ينقصهم من الجلد والمثابرة في العمل.

وفي الشرق أقاليم باردة وسكانها ليسوا أقل انحطاطـا في المدينة من سكان الأقاليم الحارة.

وأما نسبة تأخر المسلمين فـي المدنيـة إلـى الـدين الإسلامي فهو خطأ محض، من ذا الذي يقـول: إن الـدين الإسلامي، الذي يخطاب العقل ويحث على العمل والسـعي، يكون هو المانع من ترقي المسلمين؟ وقد برهن المسلمون أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي في المدنية، ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخي أن يرتاب أحد فـي هـذه المسألة. نعم إن الدين الإسلامي الصحيح قد تحول اليوم عن أصوله، واستتر تحت حجب من البدع، ووقف نموه، وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون، وظهر لهذا الانحطاط الـديني أثـر عظيم في أحوال المسلمين، ولكن هذا الانحطاط الذي ينسـب

إليه بعض الكتاب الغربيون تأخر المسلمين في المدنية يحتاج نفسه إلى سبب يرد هو إليه، فهو سبب ثانوي لا أولي.

وعلى هذا فليس ما نراه في أحوال المسلمين ناشئًا عن السببين المذكورين، فإن أحدهم لا تأثير له بالمرة، والثـاني يعد من الأسباب الثانوية، بقي عندنا السبب الثالث، فهو الذي ينبغي أن تنسب إليه هذه الحال التي نشكو منهـا، فانحطـاط المسلم كانحطاط الهندي والصيني وجميع سكان الشرق مـا عدا اليابان، ناشئ من حالة العائلة في هذه المجتمعات.

وذلك أن العائلة هي أول شيء يقـع تحـت حـواس الإنسان في أول نشأته، وهي الشيء الثابت المسـتمر الـذي يراه دائما، فإذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف، تعلقت نفسه بهـذه الخـلال، وبهـذا التعلق يخطو الخطوة الأولى في سبيل ارتقائه، حتى إذا صار رجلا وجد من حاله الشخصي ما يساعده على هذا الارتقاء.

فالارتقاء حينئذ له دوران:

الأول: دور إعدادي يقطعه الإنسان في مـدة طفولتـه وصباه، وفيه ترتسم في نفس الطفل الترتيب والتنظيم، وينشأ

فيه الميل إلى الأفعال الجميلة، وتتوجه نفسه إلى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة.

والثاني: دور عملي يقطعه الإنسان في سن الرجولـة إلى آخر العمر، وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمـون إلى الظهور في العمل.

فإن أهمل الإعداد في الدور الأول استـحال صـعود الشخص في درجات الارتقاء، ومهما حفظ بعـد ذلـك مـن العلوم في المدارس، ومهما كانت التعاليم الأدبية الدينية التي تلقى عليه، فهو يعيش كالطائر الذي قص جناحه، كلما هم أن يطير سقط، ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسـلم إلـى حظه، ورضي به، وانتهى الحال إلى أن يفضله علـى كـل شيء سواه.

ذلك لأن التعليم، سواء كان دينيا أو علميا، لا يمكن أن يكون له أثر نافع إلا إذا وجد من النفس عونا على النجـاح، كما أن البذرة مهما كانـت جيـدة لاتنبـت إلا فـي الأرض الصالحة لنموها.

يقضي أولادنا الآن أوقاتهم في تعلم القراءة والكتابـة واللغات الأجنبية، ومطالعة العلوم سنين، ثم ينتقلون إلى علوم

أخرى أعلى وأرفع من تلك، فإذا انتهت مدة الدراسة ودخلوا في ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم أن يكونوا بيننا رجالا ذوي إحساس شريف وعواطف كريمة وأخلاق حسنة، وهمم عالية، رجالا يشعرون ويعملون، ورجونا منهم أن نجني ثمار هذا التعليم الذي بذل في سبيله النفيس من الوقـت والمـال، ولكن، واأسفاه! نرى آمالنا فيهم خائبة، نرى لهؤلاء الشـبان المتعلمين قلوبا يابسة وهمما صغيرة، وعزائم ضئيلة.

أما العواطف فهي بالتقريب، فيهم معدومة، فلا يـروق لأعينهم منظر جميل، كما لا ينفرهم مشهد قبيح، ولا يعطفهم حنـو، ولا تبكـيهم مرحمـة، ولا يحترمـون كبيـرا، ولا يستصغرون صغيرا، ولا تحركهم منفعة إلى عمل مهما عظم نفعه.

وليس لذلك من سبب سوى أن التربيـة لـم تتنـاول وجدانهم في كل السنين، هذا الوجدان الـذي هـو المحـرك الوحيد للعمل لا يظهر ولا يقويه ولا ينميه إلا التربية البيتية، ولا عامل لها في البيت إلا الأم، فهي التـي تلقـن ولـدها. احترام الدين والوطن والفضائل، وتغرس في نفسه الأخـلاق الجميلة، وتنفث فيها روح العواطف الكريمة، وأشد من هـذا

كله أثرا في نفسه ظهورها في عينيه متحلية بهذه الصـفات، فيقلدها من غير فكر، ثم يعتاد على ذلك شيئا فشـيئا؛ حتـى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لا يمكن أن تنسلخ عنها.

ولا يكون لنفسه شيء من ذلك إذا قضى زمن صـباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور، ولم ينطبع في روحـه مثال من هذه الأمثلة، فلو أدركها بعد ذلـك بـالتعليم كانـت محفوظات في ذهنه لا ينفذ منها شيء إلى باطن نفسه، فـلا يحدث له شعور صحيح يكون داعيا للعمل وحاثا عليه.

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافي في وصف مـا يكابد العاشق من مرارة العشق وآلامه، وهـم لا يعشـقون، وخطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات في حب الوطن، والحث على القيام بالواجبات الوطنية، ولا يأتي قائل منهم بشيء يبرهن به على أنه شاعر بما يقول، وتـرى أن أهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شـعورا بالإحساس الديني الحقيقي، وترانا جميعا منصرفين عن كـل شيء ونحن نطلب كل شيء!

بينما كنت أكتب هذه السطور اطلعـت فـي جريـدة (المؤيد) على رسالة لحضرة الفاضل إبراهيم بك الهلباوي[1] حررها على ظهر المراكب التي سافر فيها في هذا العام إلى أوربا، وقد أعجبني من هذه الرسالة المفيـدة أمـر أخصـه بالذكر، وهو توخي كاتبها الصدق في القول، والذي دعـاني للكلام عليها هنا هو أن حضرة إبراهيم بك الهلباوي شرح لنا ما كان يجده من نفسه ويتردد في صدره عندما مـر علـى جزيرة (كريد) فقال:

" هذه أول مرة انكشفت فيها لعينى هذه الجزيرة بعـد انسلاخها من حكم الدولة، وإعطاء أوربا إياها هديـة لثـاني أنجال ملك اليونان! وقد حاولت، حال المرور، بها أن أتذكر بحسرة وجزع الحوادث التي سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير، من قتل وسفك دماء مسلمي هذه الجزيرة ومـا نالهم من الذل والمظالم، ثم مصادرة من بقـي مـنهم فـي أموالهم وثمرات أتعابهم، كمسلم حقيقي يألم بمصائب أخيه فلم

[1] من أشهر المحامين والخطباء بمصر في عصره تولى الدفاع عن وجهـة نظـر الاستعمار الانجليزى ضد الفلاحين المصريين في محاكمة دنشـاوى؟! تـوفي سـنة ١٩٤٠.

تجد نفسه في جسمي دما يتأثر ولا بقلبي محـلا للأسـف أو الرحمة ".

" ولما تساءلت مع وجداني عن سبب هذه الجمود وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب، قلت: لعـل ذلـك لكثرة ما لحقنا منها؛ حتى تدمم[1] القلب وأوشك أن يقال عنه: " تكسرت النصال على النصال".

" وقد بدا لنفسي جواب آخر على عدم الاكتراث بمـا أصاب مسلمي كريد، لم يبعد عني اختلاج الـنفس بالأسـف على مصائبهم فقط، بل أوشـك أن يخجلنـي، حيـث مـر بخاطري حسبان ذلك المصاب، ذلك أني قبل المجـيء إلـى الإسماعيلية كان آخر سفري على خط السويس مـن جهـة القاهرة محطة الزقازيق، ثم اتجه القطار بنا نحو الإسماعيلية. وهي المرة الأولى في حياتي التي مررت بها علـى (التـل الكبير) والقصاصين و "المحسمة" و "نفيشة" هذه المواقع التي اتخذت خطوطا للدفاع ضد الجيش الإنكليزي في سنة ١٨٨٢ والشأن أن المرور على مثل هذه البقاع للمرة الأولى يحـرك

[1] أي: طلي وغطي بالطلاء.

لوعة الأسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها، ومع ذلك لم أجد ألما أو اضطرابا.

هذا ما كتبه أحد رجال المصريين المشهورين بالـذكاء ومحبة الوطن وإذا أردنا أن نصدق في القول مثله يجب علينا أن نعترف أننا إذا مررنا أيضا على هذه البقاع وشـاهدناها، فلا تتحرك نفوسنا أكثر مما تحركت نفسه، ولا تشعر بـأكثر مما شعرت.

ومن البدهي أن هذا الجمود، كما سماه صـاحب هـذه المقالة، ليس منشؤه أن إبراهيم بك الهلباوي رجل جاهـل أو لا يعرف أن محبة الوطن واجبة، وليس سبب هذا الجمود ما توهمه حضرته من أن قلوبنا صلبت؛ لكثرة ما لحقنـا مـن المصائب؛ لأن توالي المصائب لا يذهب بالشعور من النفس ولا يضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلّـم الصـبر ويشـد العزائم.

وإنما السبب الحقيقي لفقد الشعور إلى هذا الحـد هـو إهمال تربية العواطف عندنا في زمن الطفولية، وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لا تتأثر إلا بالإحساسات المادية التي تقـع عليها مباشرة، وصارت غير قابلة للتأثر بالمعاني النفيسة.

رأيت مدة وجودي في فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبي على فرقة من العساكر الفرنساوية وهي عائدة من حرب التونكين، فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه، فأحسست أن الوطن تجسم لهذا الطفل في العلم الذي مر أمامه، وأثار فيه جميع الإحساسات التي بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا، أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور إلى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال، فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن، وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم في الطريق.

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطني في نفوسهم ويزهر ويثمر، وهكذا الحال في تربية الفضائل الأخرى.

فانحطاط المصري إنما هو ناشئ من حرمانه من هذه التربية الأولى ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات، ولا يهتم أحد من أهله إلا بإعطائه التغذية والملبس، فهم يعتنون به كما

يعتني أي إنسان بحيوان يحبه، فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الأساس هو بناء على الرمل لا يلبث أن ينهار مهدوما.

وبالجملة: إن التربية تنقسم إلى قسمين:

تربية العقل: وهي التي توجه مدارك الإنسان إلى اكتشاف حقائق العالم.

وتربية الروح: وهي التي توجه إرادته إلى الخير وتميل بإحساسه إلى الجميل، وكلتاهما لازمة لسعادة الإنسان.

أما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس وأما التربية الروحية فلا تكتسب إلا في العائلة، ولا يمكن اكتسابها في العائلة إلا إذا كانت الأم في أول من يدبرها، ولا يمكن أن تدبرها الأم إلا إذا كانت على جانب عظيم من الرقي العقلي والأدبي؛ لهذا قلنا: إن المصريين إذا أرادوا أن يترقوا وجب عليهم أن يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية.

ومما يوجب الأسف أن المصريين لم يفهموا إلى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم، في حين أن رجالا من مسلمي الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بأبحاثهم إلى إدراك شأن المرأة في الهيئة الاجتماعية وأحاطوا بما لوظيفتها من الأهمية، وقد

قام رجلان من أعاظمهم؛ أحدهما الأميـر علـي القاضـي والثاني عناية حسين.

فنشر الأول مقالة جميلـة موضـوعها (النسـاء فـي الإسلام) ترجمت في مجلة (المقتطف) في عدديها الصادرين في شهري يونيه ويوليه سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها -من غير ترتيب- ما يأتي:

" ما من مقياس يقاس به ارتقاء الأمم مثل منزلة المرأة فيها، فإذا أراد مسلمو الهند أن يرتقوا وجب عليهم أن يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التي كانت فيها في صدر الإسلام".

"وكفى من تاريخ روسيا الحديث دليلا على ارتباط تقدم الأمم المادي والمعنوي بمقام المرأة فيها، فقـد بقـي نسـاء الأشراف في روسيا متحجبات إلى بداية القرن الثامن عشر، يعشن في بيوت، بل في سجون لا يدخلها النور ولا الهـواء، أسدلت الأستار على كواها، وأحكمت الأقفال على أبوابهـا، ووضعت مفاتيحها في جيوب الآبـاء والأزواج، وإذا أريـد نقلهن من مكان إلى آخـر نقلـن فـي محفـات متحجبـات متبرقعات كما تنقل النساء في بلاد الهند، فلما فكـت قيـود النساء، وجارين الرجال في العلم والتهذيب، وصـرن مـن

دعائم الهيئة الاجتماعية، صارت بلاد الروس مـن أعظـم ممالك الأرض".

"كانت شمس المعارف فـي المشـرق فانتقلـت إلـى المغرب، فمنه يجب أن نستمد النور وكل مـن يسـعى فـي إعلاء شأن نسائنا له عندنا شكر، ولكن لا يغير الله ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

"ولا بد أن يسأل سائل: هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالأكفان، كالنساء الشـرقيات فـي مدن الشرق الآن؟! ويظهر لي أنهن لم يكـن يلبسـن غيـر النقاب، يسترن به وجوههن كما تستر النساء الأسـتانة الآن باليشمك، فيخفي غضون الشيخوخة، ويظهر جمال الصـبا، أما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار، فلم يشع إلا فـي أواخر عهد السلاجقة، وأما الاحتجاج بالبردة على مـا هـو شائع الآن عند مسلمي الهند وغيرها من البلدان، فلـم يكـن مصروفا في تلك العصور، والنساء من الطبقات العليا كـن يظهرن أمام الرجال غير متبرقعات".

"واستخدام العربِ الخصيان في عهد معاوية، آخـذين ذلك من الروم، واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد الأموي

الثاني، وأمر المتوكل – نيرون العرب – بفصل النساء عـن الرجال في الولائم والحفلات العمومية، ولكن بقيـت النسـاء يختلطن بالرجال إلى أواخر المائة السادسة للهجـرة وكـن يقابلن الزوار ويعقدن مجالس الأنس، ويمضين إلى الحـرب لابسات الحديد، ويساعدن إخوانهن وأزواجهن في الدفاع عن القلاع والمعاقل".

"ولما اضمحل شأن الخلفاء في أواسط المائة السـابعة ومزق التتار شمل الدول العربية، قام العلماء يتجادلون فـي هل الأليق بالنساء أن يظهرن أيديهن أو أقدامهن؟!"

وألقى الثاني خطبة فـي جمعيـة الآداب الإسـلامية بمدارس في الهند ترجمت في جريدة (المؤيد) الصادرة فـي ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ما يأتي:

"ولدينا نقطة أخرى عظيمة الأهمية لا أدري مندوحـة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها؛ إذ لا ترتقي أمـة ولا تسمو مملكة إلا بواسطتها، وهذه النقطـة هـي تربيـة البنات.

إذا لم تتحققوا أيها السادة أن النساء والرجال توءمان عاملان في الهيئة الاجتماعية، أنهم إما أن يقوموا معا، وإمـا

أن يسقطوا معا، فلا سبيل إلى الرقي ولا وسيلة إلى التقدم والنجاح، تذكروا أن الطفل هو والد الرجل، وأنه متى كانت الأمهات جاهلات لا يقدر على بث أنوار المبادئ الأدبية والتهذيبية في نفوس أولادهن ولا يرقين عقولهن ولا يقوين أبدانهن بالوسائل الصحية، فإننا نبقى إلى الأبد في آخر صف من صفوف الأمم".

فانظر إلى ما يكتبه رجال من أهل الفقه والعلم في الهند، وإلى ما كتبه فقهاؤنا وكتابنا حيث قالوا: إن المرأة لا شأن لها في ارتقاء الأمم، وإنها لا يجب أن تتعلم إلا ما يلزمها من فرائض دينها للعبادة، ولا يسوغ لها أن تتعلم للقراءة والكتابة، وقاموا جميعهم ينصحون الناس بتشديد الحجاب عليهم، ويحذرونهم من السير في طريق الكمال الذي أشرنا إليه؛ بحجة أنه تقليد للغربيين في عاداتهم، ويوهمون أن الغربيين أنفسهم متألمون من حال نسائهم.

وقد بينا بالتفصيل الأسباب الاجتماعية التي يلزم لأجلها العناية بشأن المرأة وإخراجها من الحجر الذي سقطت تحته أزمانا طويلة، وبرهنا على أنها هي صاحبة السلطة على الأخلاق، والقابضة على زمام الآداب، وأنها هي التي تسوق

الأمم في طريق الخير والشر، وأنها لا يمكنهـا أن تحسـن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية، إلا إذا كانـت علـى جانـب عظيم من العقل والعلم والأدب.

نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب في شـأن المـرأة الغربية، ومع علمنا بما هي ولا نرى مانعا من السير في تلك الطريق التي سبقتنا فيها الأمم الغربيـة؛ لأننـا نشـاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يوما فيومـا، ونـرى أن البلاد التي يتمتع فيها النساء بحريتهن وبجميع حقوقهن هـي التي تسير كالدليل أمام الأخرى وتهديدها في سبيل الكمال في المدنية، ومن جهة أخرى نرى أن جميع الأم التي حطت من شأن نسائها على غاية من الضعف، وهي في ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة، لا يظهر التفاوت بينها مع اخـتلاف الأقاليم وتباين الشعوب والأديان.

هذا هو المشاهد الواقع تحت أنظارنا، ولا يمكن لعاقل أن يجادل فيه.

أما ما زعموه من أن الأوربيين يتـألمون مـن حـال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخـر غير ما نحن فيه، ومسألة النساء التي هي موضوع بحثنا في

بلادنا غير مسألتهن في ما يكتبه بعض الكتاب الغربيين، فإننا في هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسمية، وإنالتهـا حقوقها الشرعية، وتهذيبها وتمكينها من أداء وظائفهـا فـي البيت، وهذا الطلب لا ينازعنا فيه غربي مما انحطت درجته في العقل والإحساس.

وإنما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء اسـتعمال بعض النساء لحريتهن، ومن طلبهن مسـاواة الرجـال فـي حقوقهم السياسية.

وحينئذ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هـو مغالطة أو خلط بين موضوع وموضوع؛ إذ كل إنسان يميـز بين تقرير الحق وبين استعماله.

هذه حرية الصحافة هنا وفي بعض بلاد أوربا قد ساء استعمالها إلى حد أن صار كل إنسان يتألم منها، ولكـن لـم يفكر عاقل في أن يدعي أن الواجب هو الحجر على الأفكار؛ لأن هذا الدواء يكون أمر من الداء الذي يرام معالجته.

فالأسباب التي يبني عليها كتابنا رأيهم في الحجر على حرية النساء هي عين الأسباب التي انتحلتها الحكومة الشرقية لحرمان أبنائها من حرية القول والكتابة والعمل، وهي التـي

أغرت متأخري المسلمين بقفل باب الاجتهاد في التوفيق بين أحكام الدين وحاجـات الأمـم علـى اخـتلاف الأمصـار والأعصار، مع عدم الخروج عن الأصول العامة التي قررها الكتاب والسنة الصحيحة، وهي التي زينت للآباء عنـدنا أن يستعملوا في تربية أولادهم وسائل القسوة والغلاظـة، وهـي التي كانت تقضي على الحكام عندنا، من عهد ليس ببعيـد، بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها أثمان اللحم والخضـار والمسلى وأغلب ما يباع ويشترى في الأسواق.

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بإزالة المضار التي تظهر في بعض أحوال البشر، والغفلة عن المحافظة على منافعهم، وقد يكون من أسباب تلك الغفلة أن وجوه المنـافع فـي أحـوال الناس، وهي جهات حسنها تخفى عادة على من ينظر إليهـا نظرا سطحيا، أما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم؛ لأنهـا تتشكل بأشكال الجرائم والفظائع التي تنفر منها النفوس، فأول ما تتجه إليه النفس النافرة هو أن تمحو هذا بأيـة طريقـة، وأقرب الطرق وأسهلها في بادئ الأمر هو العنف والشدة.

ولكن المتأمل إذا تروى في الأمور، يجـد أن لسـير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها في نمو الحياة

واستكمال قواها، سواء في الأفراد أو في الاجتماع، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيئ وضرر عظيم يلحق الفـرد أو الهيئة الاجتماعية.

إذا تقرر هذا فسلب المرأة حريتها هو أكبـر مخالفـة لقوانين نموها العقلي والأدبي، فالتعويل على حرمان المـرأة من حريتها في إلقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد في منع بعض النساء من إتيان ما ينشأ عنه ذلـك الضـرر، ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائـدة الخاصـة المؤقتـة يجلب ضررا عاما مستمرا وهو تعطيل النمو فـي ملكـات صنف النساء بتمامه.

وبالجملة، فإننا لا نهاب أن نقول بوجوب منح نسـائنا حقوقهن في حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربيـة، حتى لو كان من المحقق أن يمررن في جميع الأدوار التـي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات؛ لأننا على ثقة من أن جميع المطالب التي يطمح إليها نساء الغرب في هذه الأيام ليسـت من الوسائل التي يعضل حلها، ويدوم القلق بسببها، بل يقضي فيها المستقبل بحكم العقل والحق.

ورب سائل يسأل: إلى متى تنتهي هذه الأدوار التـي تنتقل فيها النساء؟ فالجواب أن ذلك سر مجهول لـيس فـي طاقة أحد من الناس أن يعلمه، وكما أننا نجهل مـاذا يكـون حال الرجل بعد مائتي سنة؟ كذلك لا يمكننا أن نعرف مـاذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة؟ وإنما نحن على يقين من أمر واحد وهو أن الإنسانية سائرة في طريـق الكمـال، وليس علينا بعد ذلك إلا أن نجد السير فيه ونأخذ نصيبنا منه.

****

التربية والحجاب

لو لم يكن في الحجاب عيب إلا أنـه منـاف للحريـة الإنسانية، وأنه صادر بالمرأة إلى حيث يسـتحيل عليهـا أن تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغـراء والقـوانين الوضعية في حكم القاصر، لا تستطيع أن تباشر عمـلا مـا بنفسها، مع أن الشرع يعترف لها في تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل، وجعلها سجينة، مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل – لو لـم يكـن فـي الحجاب إلا هذا العيب – لكفى وحده في مقته، وفي أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقـوق والشـعور بلذة الحرية.

ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو أنه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها.

إذا تقرر أن تربية المرأة من الضرورات التي لا يمكن أن يستغني عنها، فما هي التربية التي تناسبها؟ هل يناسـبها تربية كتربية الرجل؟ أو تُخص بتربية أخرى؟ وهـل يمكـن تربيتها مع الحجاب؟ أم لا بد فيها من البطالة؟ وهـل يعمـل

فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة؟ أم يرجـع فيها إلى أصول المدنية الإسلامية القديمة؟

هذه المسائل تدخل في باب التربية والحجاب، وقد دار البحث والجدل فيها في العام الماضي بين كثير من الكتـاب، والآن نريد أن نبدي فيها عن غاية من الوضوح.

ففي المسألة الأولى – لا نجد من الصواب أن تـنقص تربية المرأة عن تربية الرجل.

أما من جهة التربية الجسمية؛ فلأن المرأة محتاجة إلى الصحة كالرجل، فيجب أن تتعود على الرياضة كمـا تفعـل النساء الغربيات اللاتي يشاركن أقاربهن الرجال في أغلـب الرياضات البدنية، ويلزم أن تعتاد على ذلك من أول نشـأتها وتستمر عليه من غير انقطاع، وإلا ضعفت صحتها وصارت عرضة للأمراض؛ ذلك لأن النـواميس الطبيعيـة تقضـي بضرورة التوازن بين ما يكسبه الجسم وما يفقده؛ بحيث لـو اختل هذا التوازن فسدت الصحة، واختل نظامها. والأمراض التي تصيب الإنسان بسبب إهماله استعمال قـواه الجسـمية ليست بأقل عددا ولا بأخف ضررا من الأمراض التي تصيب من ينفق قوته ولا يعوض بالتغذية ما فقد منها.

ثم إن ما تقاسيه المرأة مـن الآلام والمشـقات حـين الولادة في مرة واحدة، ربما يزيد على ما يعانيه الرجل مـن المتاعب طول حياته، ولا يحتمله مـن النسـاء إلا القويـات المزاج، الصحيحات الأجسام كنساء القرى المتعودات علـى العمل البدني المتمتعات بالهواء النقـي، أمـا نسـاء المـدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء، فلا قـدرة لهن على احتمال هذه المشقات؛ ولذلك فإن أكثـرهن يعشـن عليلات بعد الولادة الأولى، وكثيرا ما يهلكن فيها؛ فقد بلـغ عدد من يموت منهن في النفاس أكثر من ثلاثين في الألف.

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها مـن الهـلاك والأمراض، كذلك يلزم العناية بصحتها؛ حرصا على صـحة أولادها ووقايتهم من العلل؛ لأن ما يعرض على مـزاج الأم وما يكون فيه من الاستعداد للمرض، ينتقل بالوراثـة إلـى الأولاد.

وأما من جهة التربية الأدبية، فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها إلى المحافظة على آداب النوع، فسلمتها زمام الأخلاق وائتمنتها عليها، فهي التي تصنع النفـوس، وهـي ساذجة لا شكل لها، فتصوغها في أشكال الأخلاق، وتنشـر

تلك الأخلاق بين أولادها، فينقلونها إلى مـن يتصـل بهـم فتصبح أخلاقا للأمة بعد أن كانت أخلاقا للعائلة، كما كانـت أخلاقا للعائلة بعد أن كانت أخلاقا للأم. هذا يـدلنا علـى أن المرأة الصالحة هي أنفع لنوعها من الرجل الصالح، والمرأة الفاسدة هي أضر عليه من الرجل الفاسد.

ولعل هذا هو السبب في ما وقر في نفوس الناس فـي كل زمان من أن الرذيلة الواحدة إذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها أكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها، وأن الفضيلة تعلي من شأن المرأة ما لا تعليه من شأن الرجل.

بقي علينا الكلام على القسم الأخير من التربية، وهـو التربية العقلية، هذه التربية هي عبـارة عـن تعلـم العلـوم والفنون، والغاية التي ترمي إليها، هي أن يعرف الإنسان ما في الكون من الموجودات وفيها نفسه، حتى إذا عرف ذلـك على حقيقته أمكنه أن يوجه أعماله إلى ما يعود عليه بـالنفع ويتمتع بلذة المعرفة، فيعيش سعيدا.

والمرأة كالرجل على حد سواء فـي الاحتيـاج إلـى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته، ولا فرق بينها وبينه في التشوق

إلى استطلاع عجائب الكون والوقوف على أسـراره؛ لـتعلم مبدئها ومستقرها وغايتها.

ومهما عظم اشتغال المرأة، متزوجة أو خاليـة، ذات أولاد أم لا ، فإنها تجد من الوقت ما تثقف فيه عقلها، وتهذب نفسها.

ولو خصص نساؤنا للمطالعة عشـر الوقـت الـذي يقضينه في اليوم في البطالة ولغو الكلام والخصام، لارتقـت بفضلهن الأمة المصرية ارتقاء باهرا.

ولا تتحصل المرأة على المطلوب من هـذه التربيـة العقلية بتعليمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية، بل تحتـاج أيضا لتعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخيـة؛ لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجـع إليهـا حركـات الكائنات وأحوال الإنسان، كما أنها تحتاج إلى تعليم مبـادئ قانون الصحة ووظائف الأعضاء؛ حتـى يمكنهـا أن تقـوم بتربية أولادها.

والمهم في هذه التربية هو تشويق عقل المـرأة إلـى البحث عن الحقيقة، وليس حشو ذهنها بالمواد حتى إذا انتهت

مدة تعليمها في المدارس، استمر شوقها إلى الحق فتتحـرك دائما وتعتبر به.

وأضيف على ذلك أنه ينبغي علـى البنـت أن تـتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت.

ولا بد هنا من استلفات النظر إلى وجـوب الاعتنـاء بتربية الذوق عند المرأة، وتنمية الميل في نفسها إلى الفنـون الجميلة. وإني على يقين من أن أغلب القراء لا يستحسـنون أن تتعلم البنات الموسيقى والرسم؛ لأن منهم مـن يـرى ألا فائدة في الاشتغال بهذه الفنون، ومنهم من يعدها من الملاهي التي تنافي الحشمة والوقار، وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون في بلادنا إلى حد يأسف عليه كل من عرف مالها من الفائدة في ترقية أحوال الأمم.

فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلـم؛ لأن العلم يعرفنا الحقيقة، وهذا الفن يحببها إلينا؛ لأنه يبـديها لنا على الشكل الأكمل الذي يتخيله صاحب الفن، فيبعث فينا بذلك الميل إلى الكمال، والكمالُ شيء يدركه عقلنا، لكنـه لا يقع تحت حواسنا، فلا يمكننا أن نتصوره إلا إذا صار مجسما أمامنا في شكل لطيف نحس به، ومتى رأيناه في هذا الشـكل

تعلقت نفسنا بمحبته، وكلما كان صاحب الفـن مـاهرا فـي صناعته كان صنعه أقرب للكمال، وكانت النفس أكثر مـيلا إليه، وأشد إعجابا به، وأعظم سرورا بالإحساس به.

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فإنها أفصح لغة تعبـر عما في ضمائرنا، وألذ ما يرد على مسامعنا، ومن أحسن ما وصفت به قول أفلاطون:

"إن الموسيقى تبعث الحياة في الجماد، ويسـمو بهـا الفكر، ويرتقي الخيال، وتبث في النفس الفـرح والسـرور، وترفعها عن الدنايا، وتميل بها إلى الجمال والكمال، فهي من عوامل الأدب للإنسان".

هذه هي التربية التي نود أن تكون للبنات، وقد بيناهـا إجمالا؛ لأن المقام لا يسمح ببيانها تفصيلا. هذه هي التربيـة الكاملة التي تيسر للمرأة الجمـع بـين واجباتهـا المختلفـة المتعددة، فتعدها لأن تكون إنسانا يكسـب عيشـه بنفسـه، وزوجة قادرة على أن تحصل لعائلتها أسباب الراحة والهناء، وأما صالحة لتربية أولادها.

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم مـن الوسـائل لتنمية قواها الجسمية، وملكاتها العقلية، تكون قد بلغت سـن

الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، فما الذي ينبغي أن تكون عليه بعد ذلك؟ وكيف تعيش؟ أتحجب في بيتها، وتمنع عن مخالطة الرجال؟ أو تطلق لها الحرية في ذلك؟ هذا هو موضع البحث في المسألة الثانية والثالثة، وسنتكلم عليهما معا؛ لما بينهما من الارتباط.

رأى المنتقدون على (تحرير المرأة) أننا تطرفنا في مسألة الحجاب، وأننا نشرنا برفعه تقليدا للعادات الغربية.

وزعموا أن الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليه ضرر لها؛ ولذلك ذهبوا إلى وجوب استبقائه والمحافظة عليه، وقالوا: إن الذي حط بالمرأة عن منزلتها، إنما هو عدم التربية، فلو تربت تربية حسنة لأمكنها، وهي في الحجاب، أن تقوم بواجباتها أحسن قيام.

على أننا بعد أن دققنا النظر في جميع ما قيل أو كتب في هذا الشأن، لا نزال على رأينا، ولم يزدنا تكرار البحث فيه إلا وثوقًا بصحة ما ذهبنا إليه.

ولا نرى سببا للخلاف بيننا وبين مناظرينا إلا الاختلاف في فهم معنى التربية، فهم يرون أن التربية هي التعلم، وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير في المدرسة

سنين محدودة، تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية، وأنه متى نال هذه الورقة السميكة، التـي سـماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار)! عد بالغًا في العلم و الأدب حد النهاية. ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد أن التربية لا تقوم بالمكث في المدرسة والحصول على الشهادة، وإنمـا كل ما يستفيد الصبي من ذلك في أيام التحصيل الأولى هـو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه.

ذلك لأن الصبي في السنة الرابعة عشرة أو الخامسـة عشرة من عمره لا يعرف من العلـم إلا نظريـات عامـة ومسائل كلية يحفظها في جمل مختصرة، ومهما كانت هـذه القضايا علمية أو أدبية، فلا قيمة لها إلا بظهورها في العمل، وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التي تحدد دائرة تطبيقهـا والحد الذي يفصلها عن غيرها، وتبين الأحوال التي تـدخل فيها أو تخرج عنها، وجهات نفعها وضررها، هذه التطبيقات هي الواسطة الوحيدة في فهم القواعد علـى حقيقتهـا، فـإذا انعدمت لا تكون هذه القواعد إلا ألفاظًا وخيالاتٍ.

لهذا لا يخطر على بال رجل عاقل أن يسلم نفسه إلى طبيب يوم خروجه من المدرسة، ولا يختار محاميا للدفاع عنه يوم نيله للشهادة، وهو لم يتمرن على العمل زمنا كافيا!

وكذلك الحال في الأدب والأخلاق؛ إذ لا شيء على الإنسان أسهل من أن يعلم مقدار الفائدة في ضبط شهواته وقهره نفسه. ولكن لا شيء أصعب في العمل من أن يأتي ذلك بالفعل؛ لأن قهر الإنسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعيان قوة عظيمة في الإرادة، ولا توجد هذه القوة في الإرادة بإقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائض، ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الأدبية، وإنما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها.

فمزاولة الأعمال ومشاهدة الحوادث، واختبار الأمور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب، كل هذه الأشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة، بها ترتقي النفوس الكريمة؛ حتى تبلغ أعلى الدرجات، وأمامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط إلى أسفل الدرجات.

قال (سبنسر)[1] في هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية:

"لا فائدة من التربية التي تجعـل الإنسـان مسـتودعا لأفكار غيره؛ لأن الكلمات التي توضع في الكتب لا يمكن أن تنتج معاني إلا على نسبة التجارب المكتسبة".

وقال (أدمون ديمولان)[2] عند كلامه علـى التربيـة الأدبية نقلا عن تجربة صديقي أحمد فتحي باشا زغلول:

"إن ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا إلى أن الأمم التي بلغت فيها همة الإنسان منتهاها، وهـي ملجـأ الحيـاة الأدبية الصحيحة؛ حيث تثبت الأخلاق وتبقى المحامد، وبيانه أن المؤثر الأدبي إنما يجعل المرء قادرا على قهـر الـنفس والتغلب على هواها، وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهـر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة العملية التـي يـتعلم فيها أن لا اعتماد إلا على نفسه، وليس مـن مـرب يأخـذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة، فهي التي تقـود المـرء

---

(1) هربرت سبنسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣م) الفيلسوف الإنجليزي الذي لقـب بفيلسـوف التطور.

(2) (١٨٥٢ – ١٩٠٧م) عالم الاجتماع الفرنسي، صاحب كتاب (سر تقدم الإنجليـز السكسونيين) وصاحب كتاب (التربية الحديثة).

إلى الحياة الحقيقية، وهي المدرسة الطبيعة التي تريه كيـف يتحمل المتاعب والرزايا، وهي الأسهل تناولا والأكثر شيوعا وطلابا، تلك ضرورات أشد فعلا في النفـوس مـن وعـظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من إحدى الأذنين ويخرج من الأخرى؛ ذلك لأن الأعمال تـدعو إلى العمل أكثر من الأقوال".

فالتجارب هي أساس العلم والأدب الحقيقيين. والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس؛ لأن المـرأة التـي تعيش مسجونة في بيتها، ولا تبصر العـالم إلا مـن نوافـذ الجدران أو من بين أستار العربة، ولا تمشي إلا وهي كمـا قال الأمير علي القاضي: "ملتفة بكفن"، لا يمكـن أن تكـون إنسانا حيا شاعرا خبيرا بأحوال الناس، قادرا على أن يعيش بينهم.

ولا يكفي لإخراج المرأة المصرية مـن هـذا الحيـاة الصناعية التي يشكو الكل منها، أن تمكث بضع سـنين فـي المدرسة، ثم تنتقل منها إلى بيت تحتجب فيه بقية عمرها، بل يلزم أن تستمر في الاعتناء بجسمها وعقلها بعـد المدرسـة، ونشركها في حياتنا الطبيعية، يلزم أن نضع يدنا في يـدها،

ونسير معها في الأرض، ونريها عجائب الكـون ولطـائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغـابر، واختراعـات الزمن الحاضر، يلزم أن تقاسمنا أفكارنا وآمالنـا وأفراحنـا وآلامنا، وتحضر مجالسنا، فتستفيد مما يعـرض فيهـا مـن الأخلاق والأفكار والمباحث، وتفيدنا على رعايـة الحشـمة والتأدب في القول.

يقول معترض: "إنا نراك تريد أن تحسن حال المـرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية، فهلا أعرت تمدننا القديم الذي كان من أصوله احتجاب النساء- نظرةً، وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى مجدها القديم فتلتفت إلى أصـوله لفتة علمية ترى أنه هو المجد الصحيح الذي يجب أن نشد له رواحل العزائم، والذي سيتضح للعالم أجمع يوما ما أنه هـو نفس الكمال الذي ينشده الإنسان ويلتمسه الوجدان؟".

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعه لطلاوة لفظه، وربما ينجذب إليه؛ لأنه يحرك الميل الغريزي في كل إنسان إلى التعلق بآثار الآباء والأجداد. ولكن الأجدر بنا أن نجعـل للفظ تأثيرا فينا إلى حد يذهلنا عن الحق، وعلينـا أن نأخـذ أهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة إذا خشينا أن تسـلبنا

إرادتنا واختيارنا، والتعلق بالتقاليد الراسخة لا يحتـاج إلـى التحريض والترغيب؛ لأنه حالة لازمة للنفس آخذ بزمامهـا، فهي مستغرقة فيها من ذاتها، وإنما الذي يحتـاج للتشـويق والتشجيع هو التخلص من ماضٍ ضار، واعتنـاق مسـتقبل نافع.

إذا أمكنا أن نأخذ تلك الأهبة كان، أهم ما يجب علينـا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامي القديم ونرجع إليـه، ولكـن لا لننسخ منه صورة، ونحتذي مثال ما كان فيه سواء بسواء، بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فـي أسـباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص مـن ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفي مـا يستقبل من الزمان.

ظهر الدين الإسلامي في جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون في حال البداوة، أي في أدنى الحالات الاجتماعيـة، فأوجد بينهم رابطة ملية، وأخضعهم إلى رئيس واحد، ووضع لهم شرعا نسخ ما كان عندهم مـن العـادات المتبعـة فـي معاملاتهم من قديم الزمان، ولما أمـرهم بالجهـاد أخـذوا يحاربون الأمم الأخرى، واستولوا عليها، ولـم يكـن ذلـك

بامتيازهم على من جاورهم من الأمم في العلوم والصـنائع، ولكن كان يروح الوحدة التي بعثهـا الإسـلام فـيهم، مـع استعدادهم الفطـري للقتـال، فلمـا اختلطـوا بالمصـريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود، وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الأمم كثيرا من العلوم والصنائع والفنون، فاسـتفادوا منها ونقلوا معظمها إلى لسانهم، سمحوا لأولئك المغلـوبين، أن يأتوا في ترقيتها بما شاءوا، وظهرت عند ذلـك نهضـة علمية، كما هو الشأن في الأمم عقب كل انقلاب يجري لغاية صالحة، استمرت مدة أربعة قرون تقريبا.

على هذين الأساسين شيدت المدنية الإسلامية:

الأساس الديني الذي كون من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد.

والأساس العلمي الذي ارتقت به عقول الأمة الإسلامية وآدابها إلى الحد الذي كان في استطاعتها أن تصل إليه فـي ذلك العهد.

ولكن لما كان العلم في تلك الأوقات في أول نشـأته، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لا يؤيد أكثرها بشيء من التجارب، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين، فتغلـب

الفقهاء على رجال العلم، ووضعوهم تحت مراقبتهم، وزجوا بأنفسهم المسائل العلمية وانتقدوها. وحيث إنهم لم يأتوا إليهـا من بابها، ولم يجهدوا أنفسهم في فهمهـا، أخـذوا يؤولـون الكتاب والأحاديث بتأويلات استنبطوا منها أدلة علـى فسـاد المذاهب العلمية وحملوا الناس على أن يسيئوا الظن بها، وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقـة والكفـر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه، وانتهى بهم الحـال إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية، بـل غلوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية نفسها إنها لا بد أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، فقرروا أن ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدي الذي لا يجوز لأحد أن يخالفه، وكأنهم رأوا من قواعد الدين أن تسـد أبواب فضل الله على أهله أجمعين.

هذا النزاع الذي قام بين أهل الدين وأهـل العلـم، ولا أقول بين الدين والعلم، لم يكن خاصا بالأمة الإسلامية، بـل وقع كذلك عند الأوربية، ولكن لما كانت هذه الأمم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب، كان وصول تلـك العلـوم إليها قرب تمام تكوينها، لم تحتج أوربا إلى زمن طويل فـي

اكتشاف الأصول الحقيقية لتلك العلوم، وقد نالت منهـا فـي مائتي سنة ما لم ينله غيرها فـي آلاف السـنين، وتوالـت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضا ويرشد بعضـها إلـى بعض، فمنها اكتشاف قوانين سير الكون، وتحليل الضـوء، وسرعة سيره، وكيفية تكون الأصوات وسـرعتها وشـكل اهتزازتها، وعلمت ماهية الحرارة، وكيفيـة تكـون الكـرة الأرضية وحقيقة شكلها، وتكون الأرض وتقـادم الإعصـار عليها وعلى سكانها، وضروب التغيرات التي طرأت عليهـا والأدوار التي تقابلت فيها من وقت أن كانت كتلة نارية إلـى أن ظهر عليها النوع الإنساني بعد جميع الأنواع الأخرى.

ثم عرفت قوانين الحياة، ووظائف الـدورة الدمويـة والتنفس والهضم، وخصائص قوى الإدراك، وكيف تتكـون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى؟ وصـححت وكملـت أصول الكيمياء والطبيعية.

من هذه الاكتشافات أخذ الكتاب والفلاسفة ما دعت إليه الحاجة ليعلموا الإنسان من أين أتى وإلى أين يذهب وما هو مستقبله، ووضعوا أسـاس العلـوم الأدبيـة والاجتماعيـة والسياسية.

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لا يمكن لعاقل أن يفكر في أن يهدمه، ولهذا تغلب رجال العلم على رجـال الدين في أوربا بعد النزاع والجهاد، وانتهى الحال بأن صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة.

فإذا كان التمدن الإسلامي بدأ وانتهى قبل أن يكشـف الغطاء عن أصول العلوم، كما بيناه، فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشـري؟ يهمنـا ألا نـبخس أسلافنا حقهم ولا ننتقص من شأنهم، ولكن يهمنا مـع ذلـك ألا نغش أنفسنا بأن نتخيل أنهم وصلوا من التمدن إلى غايـة من الكمال ليس وراءها غاية، نحن طلاب حقيقة إذا عثرنـا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها؛ لذلك نرى من الواجب علينا أن نقول:

إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسـلامي ويقف على ظواهره وخفاياه؛ لأنه يحتوي على كثيـر مـن أصول حالتنا الحاضرة، ويجب عليه أن يعجب به؛ لأنه عمل انتفعت به الإنسانية وكلمت به ما كان ناقصا منها في بعض أدوارها، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمـدن لا يمكـن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية.

أما من جهة النظامات السياسية، فلأننا مهما دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاما، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين، فكان الحاكم وعماله يجرون في إدارتهم على حسب إرادتهم، فإن كانوا صالحين رجعوا إلى أصول العدالة بقدر الإمكان، وإن كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعنف، ولم يكن في النظام ما يردهم إلى أصول الشريعة.

ربما يقال: إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة، وأن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الأمر، ونحن لا ننكر هذا، ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب إلا بعض دقائق هي سلطة لفظية، أما في الحقيقة، فالخليفة هو وحده صاحب الأمر، فهو الذي يعلن الحرب ويعقد الصلح، ويقرر الضرائب ويضع الأحكام ويدير مصالح الأمة مستبدا برأيه ولا يرى من الواجب عليه أن يشرك أحدا في أمره.

ومن الغريب أن المسلمين في جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية، ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه

الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية بها من الحكام في إدارة شئونها.

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الأعمال التي وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء، مع أن بيان الجرائم وعقابها هما من أوليات أصول العدالة.

ولست محتاجا أن أقول: إنهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإن هذه العلوم حديثة العهد، وإذا أراد مكابر أن يتحقق من ذلك، فما عليه إلا أن يتصفح مقدمة ابن خلدون، وهو الكتاب الفرد الذي وضع في الأصول الأجتماعية عند المسلمين يرى أن الأصول التي اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطأ، ويندهش على الخصوص عندما يرى أن هذه الكتاب الذي وضع للبحث في المسائل الاجتماعية، لم تذكر فيه كلمة واحدة في العائلة التي هي أساس كل هيئة اجتماعية، فإذا كانت حالتهم السياسية هي كما ترى، فما الذي يطلب منها أن تستعيره منها؟

كذلك إذا نظرنا إلى حالتهم العائلية نجد أنهـا مجـردة عن كل نظام؛ حيث كان الرجل يكتفي في عقد زواجه بـأن يكون أمام شاهدين، ويطلق زوجته بـلا سـبب أو بـأوهى الأسباب، ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب. كل ذلك كان واستمر إلى الآن على ما هو مشهور، ولم يفكر أحد من الحكام أو الفقهاء في وضع نظام يمنع انحـلال روابـط العائلة، وأقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل أن يقروا مـثلا إيقاع الطلاق.

وعقود الزواج والرجعة لا بد أن تكون أمام مـأمور شرعي؛ حتى لا تبقى هذه الشئون موضعا للريـب ومحـلا للشبهة ومثارا للنزاع والشقاق.

أين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الأوربيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية؟ بل أيـن هي من القوانين اليونانية والرومانية التي لم تغفل في جميـع أدوارها عن أهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية؟ فأي شيء من هذا يمكن أن يكون صالحا لتحسين حالنا اليوم؟

بقي علينا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامي مـن جهـة الآداب، يعتقد أهل عصرنا أن المسـلمين السـابقين كـانوا

حائزين لجميع أنواع الكمالات الأخلاقية الصحيحة، وهو اعتقاد غير صحيح، أو على الأقل مبالغ فيه.

أما من جهة أصول الأدب، فالمعلوم أن المسلمين لم يأتوا للعالم بأصول جديدة، فقد سبق المسلمين أمم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم، وقد كانت تلك الأمم تعرف تلك الأصول، وضمنتها كتبها، ونزلت على بعضها في وحي سماوي.

وأما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الأصول الأدبية، فالتاريخ يشهد على أن كل كعصر لا يخلو من الطيب والرديء والحسن والقبيح. وقد وصلت إلينا أخبار العرب مدونة في الكتب التاريخية والأدبية، فكشفت لنا الغطاء عن أخلاقهم ومعاملاتهم، واطلعنا على شعرهم وأمثالهم وأغانيهم فما وجدنا زمنا من الأزمان خاليا من الآداب الفاسدة والأخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة.

رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم– إلى آخر أيامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة على التباغض والحقد وحب الذات، حتى في الأوقات التي كانت فيها الدولة مشتغلة بأهم الحروب مع الأمم

الأخرى رأينا أحد أولاد علي -رضي الله عنه- تزوج بأكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده أن ينصح الناس بألا يزوجوه بناتهم؟

ورأينا من الرجال من كان يعترض النساء في الطريق ويختلس النظر إليهم من خروق الحائط! رأينا من أمـرائهم وأعاظمهم من كان يشرب الخمر؛ حتى لا يعي ما يقول فـي مجالس تحضرها الجواري وتطـرب الحاضـرين بنغمـات الموسيقى!.. رأينا من شعرائهم من يستجدي العطايا ويمد يده ملتمسا رزقه من فضلات الأمراء والأغنياء، ومنهم من يمدح نفسه ويثني عليها، ويذهب في ذلك إلى حد لـيس بعـده إلا الجنون، أو يتغزل في ولد، أو يهجو خصمه بعبارات الفحش وألفاظ الوقاحة التي يستحى من تصورها، فضلا عن التفـوه بها!. رأينا من مؤرخيهم من يزور في التاريخ ومن فقهـائهم من يخترع الأحاديث ويضعها لغايته الذاتية!.

فأي زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال: إنه نموذج الكمـال البشـري؟ الكمـال البشري لا يجب أن نبحث عنه في الماضي، بل إن أراد الله أن يمن على عباده فلا يكون إلا في المستقبل البعيد جدا.

من أغرب ما اعتاد عليه العقل الإنساني أن يظـن أن العصر الذي هو فيه أحط منزلة في الكمال من العصر الذي سبقه. ومنشأ ذلك أن الأبناء ينشئون علـى احتـرام آبـائهم وتعظيم كل ما يصدر عنهم، فالكمال عندهم ما وجدوا عليـه آباءهم، ويزيد ذلك تقريرا في نفوسهم أن الآباء يسـتهجنون دائما ما صار إليه أبناؤهم مما لـم يكـن معهـودا لهـم، لا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم، فيكون وهم الأبنـاء وغـرور الآباء كل منهما عونا للآخر على استقباح الحاضر وعبـادة الماضي.

ولو صح ما يزعمون لكان أكمل إنسان هو أول مـن وجد من نوعه، ولاستمر النقص عصرا بعد عصرا إلى هذا اليوم، ولكانت نهاية الإنسان أن يصير حيوانا أعجم، أنه من الثابت أن عصورا مضت على النوع الإنساني وهو في أدنى مراتب الإنسانية، ثم ارتقى بالتدريج إلى أن وصل إلى هـذه الدرجة العليا التي يحق له أن يفتخر بها.

متى تقرر أن المدنية الإسلامية القديمة هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكـون عليه، لا بما كانت في الحقيقة عليه، وثبت أنها كانت ناقصة

من وجوه كثيرة، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاج المرأة كان من أصولها أو لم يكن، وسواء صح أن النسـاء فـي أزمـان خلافة بغداد أو الأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لـم يصح، فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها فـي عصرنا.

ونحن لا نستغرب أن المدينة الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها، فليس خطؤها في ذلك أكبر مـن خطئها في كثير من الأمور الأخرى.

وغني عن البيان أننا عند كلامنا على المدينة الإسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين، بل من جهـة العلـوم والفنون والصنايع والآداب والعادات، التي يكون مجموعهـا الحالة الاجتماعية التي اختصت بها؛ ذلك لأن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الأخلاق لم ينتج إلا أثرا مناسـبا لدرجة عقول وآداب الأمم التي سبقت.

والذي أراه أن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو مـن الأهواء التي يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها؛ لأنـه ميـل يجرنا إلى التدني والتقهقر، ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل

في نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن إنشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا، فهـو صورة من صور الاتكال على الغير، كأن كلا منـا ينـاجي نفسه قائلا لها: اتركي الفكر والعمل والعنـاء، واسـترخي؛ فليس في الإمكان أن نأتي بأبدع مما كان!.

هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه، ولـيس من دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدينـة الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها.

إذا أتى هذا الحين – ونرجو ألا يكون بعيدا – انجلـت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشـمس، وعرفنـا قيمـة التمدن الغربي، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت وسواء كانت ماديـة أو أدبيـة خاضعة لسلطة العلم.

لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجـنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيمـا فـي شـكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها، ونظام عائلتها، وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها، بل في كثير من العـادات

البسيطة كالملبس والتحية والأكل، أمـا مـن جهـة العلـوم والصنايع فلا يوجد اختلاف إلا من حيـث كونهـا تزيـد أو تنقص في أمة عن أمة أخرى.

من هذا يتبين أن نتيجة التمدن هي سوق الإنسانية في طريق واحد، وأن التباين الذي يشاهد بين الأمم المتوحشة أو التي لم تصل إلى درجة معلومة من التمدن منشؤه أن أولئك الأمم لم تهتد إلى وضع حالتها الاجتماعيـة علـى أصـول علمية.

هذا هو الذي جعلنا نضرب الأمثال بالأوربيين ونشـيد بتقليدهم، وحملنا على أن نسـتلفت الأنظـار إلـى المـرأة الأوربية.

هذه مسألة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قـد اجتهـدت كثيرا في أن أقف على رأي علماء المسـلمين فيهـا، مـن المتقدمين أو المتأخرين، فما وجـدت شـيئا، وقـد نبهنـي أصحابي إلى كتاب ألفه في هذا الموضوع حضـرة الشـيخ حمزة فتح الله[1] المفتش بنظارة المعارف، وقد قرأته من أوله

---

[1] حمزة فـتح الله (١٢٦٦ – ١٣٣٦ هـ ـ - ١٨٤٩ – ١٩١٨م) أديـب وعـالم وصحفي مصرى ، له أبحاث لغوية، وشارك في مؤتمر المستشرقين بفينا واستوكلهم وترك عددا من الرسائل والمصنفات.

إلى آخره، فوجدته يحتوي على كل شيء، ولكنه لم يشـتمل على شيء مما وضع الكتاب لأجله!.

ومن الغريب أن الذين لم يرق في نظـرهم إعجابنـا بالأوربيين اضطروا جميعهم بمن فيهم الشيخ الأزهـري أن يستشهدوا في الرد علينا بـآراء بعـض العلمـاء والكتـاب الأوربيين، نساء ورجالا!.

فإن كان منهم من يقول:إنني قليل الاطلاع على ما كتبه المسلمون، قصير الباع في علومهم، فأنا لا أجادله في هـذا، وإنما يسرني ويملأ قلبي بهجة أن أرى كتابا إسلاميا، قـديما أو جديدا، يحتوي على حقوق المرأة وما يجب عليهـا مـن حيث هي امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة، فإن جاءني مـن يزعم قلة اطلاعي وقصر باعي بكتاب مثل هذا، أثقلته حمدا وشكرا.

وسيقول أرباب الأفكار عندنا: إنا نسلم بـأن المدنيـة الأوربية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التي توصـلت إلى جمعها وإنمائها واستخدامها، ولكنها فاسدة رديئة ضـارة بالنسبة للأخلاق والآداب التي تلازمها في كل مكان وصلت إليه.ـ

فهم يعترفون للغربيين بأنهم أرقى منـا فـي العلـوم والفنون والصنايع، ويعترفون بأن معارفهم أوصـلتهم إلـى توجيه أعمالهم في طريق تحصيل منافعهم بأحسن الوسـائل الموصلة إلى السعادة في هذه الدنيا، ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض، وخصوصـا كيفيـة معاملـة رجالهم لنسائهم، أو سمعوا بها، تغير حكمهم علـيهم تغيـرا كليا، وأعرضوا عن فهم ما هم فيه، وصرحوا بأنهم أحط منا في الآداب.

هذا الاعتقاد يشبه أن يكون عاما فينا كما يلاحظ مـن يقرأ الجرائد ومن يلتفت إلى الأحاديث التي تدور بين الناس، وهو اعتقاد لا يصعب علينا بيان سببه.

ذلك آثارهما محيطة بنا من جميع أطرافنا، فكلما التفتنا إلى جهة من جهاتنا وجدنا أثرا منها مشهودا، نراها في البيت في مأكلنا ومشربنا وملبسنا، وجميع أدوات المنـزل وأثاثـه، نراها في المدرسة مدة التعليم، ثم من النظامات التي تـدور عليها جميع أصول وفروع إدارتنا وحكومتنـا، نراهـا فـي الطريق على شكل عمارات فاخرة وجوانب كبيرة وبسـاتين منتظمة، وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية

والكهربية، وبالجملة نرى في كل آن وفي كل مكان برهانا ماديا لا يمكن معه إلا التسليم بأننا متأخرون عن الغربيين كثيرا في المعارف العلمية والصناعية.

وكأنما نريد أن نمحو العار الذي يلحقنا من هذا الاعتراف ونأخذ بثأرنا، فلا نجد وسيلة لذلك إلا أن ندعي أننا أرقى منهم في الآداب، وأنهم إن سبقونا في الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم في الروحانيات وسرائرها.

وإنما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى؛ لأن التقدم في الماديات مما يقع تحت الحس، فلا يمكن إنكاره، أما التقدم في الأمور المعنوية فهو مما لا يدرك إلا بالعقل، فلا يقف عليه كل إنسان ويجد المكابر في غيبته عن الحس مجالا للإنكار، وقد يساعد المكابر في مكابرته ما يراه أو يسمع به في البلاد الغربية من كثرة الملاهي ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيئ العادات التي يتبرأ منها الغربيون أنفسهم ويتألمون لانتشارها، والعقلاء منهم يسعون في محوها أو تقليلها، ولكنهم يأسفون على أن مساعيهم تعجز عن الوصول إلى ما يتمنون، فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب، وأقمنا منها حجة لتأييد دعوانا.

ومما أخذناه على الغربيين في آدابهم تكشف نسائهم واختلاطهن بالرجال، وتمتعهن بالحرية التامة واحترام الرجال لهن، وكثير منا يعد هذه العادات أسبابا لفشو الفساد فيهم، ويعتقدون أن جميع نسائهم لا يعرفن العفة، وكل الرجال مجردون من الغيرة.

ولما كانت غاية التمدن هي تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث، ونشر الفضيلة بين الناس، كان لنا الحق في احتقار المدنية الأوربية، إن صح ما اعتقدناه فيها.

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح؟

أما كون الآداب في الغرب أحط منها في الشرق، فهي مسألة لا يسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها، ويمكننا أن نجمل الكلام عليها في قليل من العبارات:

إن العداوة القديمة التي استمرت أجيالا بين أهل الشرق والغرب، بسبب اختلاف الدين، كانت ولا تزال إلى الآن بسبب في جهل بعضهم أحوال بعض، وأساء كل منهم الظن بالآخر، وأثرت في عقولهم حتى جعلتهم يتصورون الأشياء على غير حقيقتها؛ إذ لا شيء يبعد الإنسان عن الحقيقة أكثر

من أن يكون عند النظر إليها تحـت سـلطان شـهوة مـن الشهوات؛ لأنه أن كان مخلصا في بحثه محبا للوقوف علـى الحقيقة، وهو ما يندر وجوده، فلابد أن شهوته تشوش عليـه في حكمه، وأدنى آثارها أن تزين له ما يوافقهـا وتسـتميله إليه، وإن كان من الذين لا منزلة للحق من نفوسهم – وهـم السواد الأعظم – ضربوا دون الحق أستارا مـن الأكاذيـب والأوهام والأضاليل مما تسوله لهم شهوتهم؛ حتى لا يبقـى لشعاع من أشعة الحق منفذ إلى القلوب.

وزد على ذلك أن التربية العلمية لم توجد فـي العـالم الغربي إلا من زمن قريب، وهي لا تزال إلى الآن مفقـودة في الشرق، والمحروم من هذه التربية لا يسهل عليه أن يبني أحكامه على مقدمات صحيحة؛ لأن الجاهل يستمد حكمه من إحساسه لا من عقله، فهو لا يستحسن الشيء؛ لأنه مطـابق للحق، وإنما يعتقد الشيء مطابقًا للحـق؛ لأنـه يستحسـنه، بخلاف المتعود على الأبحاث العلمية، فـإن عقلـه ينخـدع بإحساسه، فكلما أراد أن يشتغل بمسألة طبيعيـة أو تاريخيـة مثلا، جمع الحوادث التي تتعلق بها ورتب الوقائع واسـتنبط منها القاعدة التي يحكم بصحتها بناء على مـا حصـل مـن

المقدمات، غير صادر في ذلك إلا عن حب الحقيقـة، فـإذا عرض له أن يشتغل بالنظر في حال جاره أو عدوه استعمل الطريقة التي ألفها، وسلم بما تؤدي إليه من النتائج وخضـع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه.

ولقد وصل الغربيون إلى درجة رفيعة مـن التربيـة، واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين، وكتبوا في عادتهم ولغـتهم وآثـارهم ودينهم، وألفوا فيها كتبا نفيسة أودعوها آراءهم مـن نتـائج بحثهم. وامتدحوا ما رأوه مستحقا للمدح، وقدحوا في ما رأوه محلا للقدح، غير ناظرين في ذلك إلا إلـى تقريـر الحـق وإعلان الحقيقة، صادفوا الصواب أم أخطئوه.

أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذه المبلغ؛ ولهـذا كان حكم كتابنا في هذه الأشياء في قيادة الشـهوات وتحـت سلطة الإحساس والإلف والعادة، ومن وجد لشـعاع الحـق لمعانا في بصيرته، ووجد من خوف اللائمة عقيدة في لسانه تمنعه من إظهاره، أو حمله الرياء على إطالة القول في تأييد ما لا يعتقده، فإذا وجد بينهم مخلصا في القصد طالب للحـق وجهر به، كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة

للدين والملة – وأشدهم اقتصادا في ذمـه يرميـه بـالبطش والخفة؛ توهما منه أن الاعتراف بفضل الأجنبي ممـا يزيـد طمع الأجانب فينا، وأن إظهار عيوبنا مما يوقع اليأس فـي قلوبنا.

ولا عذر لهم في حكمهم هذا إلا أنهم قد جروا فيه على سنتهم في سائر أحكامهم، وإلا فهم مخطئون؛ لأن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا، وإنمـا هـو نفس ذلك الانحطاط الذي عرفه الأجانب منا قبل أن نحس به من أنفسنا، فهم قد اكتشفوا ما كانت عليه بلادنا منذ خمسـة آلاف سنة، ووقفوا على أخلاق المصريين وتفصيل أحـوالهم في معيشتهم أيام الفراعنة، وجمعوا من حقائق ذلـك الوقـت شيئا كثيرا لم يصل إلينا إلا منهم، وقليل منا من يعرفه! فـلا عجب أن يكونوا أسبق منا إلى معرفـة حالتنـا الحاضـرة. نقصها وكمالها.

ثم لا خوف أن يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنـا؛ لأن اليأس إنما يكون عند استحالة الخـلاص مـن التهلكـة، وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة إلينا، خصوصا أن الأمـم لا تقف في حياتها عند حد، بـل هـي موضـوع للتقلبـات

والتغيرات، وتتوارد عليها أحوال القوة والضـعف والشـدة والرخاء، فلا تدوم على حال، وإذا عرضت عليها الشدة يوما لا تلبث أن تخرج مها بجهدها واجتهادها.

وبدهي أن التوجه إلى الإصلاح والكمال لا يمكن إلا بعد شعور بالنقص، فلما لم تستشعر الأمة بتأخرها عن الأمم الأخرى، وتقصيرها عن الوصول إلى ما وصل إليـه مـن غايات الكمال لا تنبعث إلى التقدم ولا تتحرك لإدراك غايـة من هذه الغايات؛ ولذلك كان تنبيه الأمة إلى نقصها وإشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الأمم أول فرض يجب القيام به، كما أن شعور الأمة بهذا النقص يعد أول خطوة في سبيل ترقيتها.

لهذا لا نتردد في أن نصرح بأن القول بأننا أرقى مـن الغربيين في الآداب، هو من قبيل ما تنشـده الأمهـات مـن النغائم لتنويم الأطفال!.

وغاية ما في الأمر أن تقدم الأوربيين علينا من هـذه الجهة لا يقام الدليل عليه بآثار مادية، كتقدمهم فـي العلـوم والصنائع. وإنما يعرفه من خالطهم واختبرهم فـي ظـاهر شئونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم مـن الخصـائص الأدبية.

ينقسم الأوربيون، كما تنقسم سائر الأمم، إلى ثلاث طبقات: عليا، ووسطى ودنيا، فأما الطبقة الدنيا فأكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم، وهم في أخلاقهم الشخصية أشد فسادا من عامتنا في أخلاقهم.

وأما الطبقة العليا فتصيب حظًا عظيما من التربية العقلية، ولكن يغلب عليها ما يغري به الغنى والبطالة، وتستولي عليها الشهوات، فهو يتفننون في اللذائذ تفنن أهل الجد في الاختراعات والصنائع.

وسبب ذلك أن التمدن الذي يعيشون فيه قد يسهل لهم إرضاء شهواتهم، ويجدون من الوسائل لذلك ما لا يوجد عندنا، فأبدعوا في اختراع طرق التلذذ، وأعطوها الأشكال التي تجذب النفوس إليها، فالكهرباء مثلا التي تضيء المدن وتنقل الأخبار، وينتفع منها الزراع والتجار والصانع والمسافر والمريض، تقوم لأرباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذي يناسبهم. وكذلك ترى لهم جرائد وكتبا وميادين تمثيل تختص بهم، كما أن لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة.

هذا الفساد مما تتحمله المدنية المغربية وتصير عليه؛ لأنها لا تستطيع محوه، فإن هذه المدينة مؤسسة على الحرية الشخصية. فهي مضطرة لأن تقبل ما يتبع هذه الحرية من الضرر؛ لأنها تعلم أن منافعها أكثر من مضارها.

فوجود الفساد في الغرب إنما هو لاحق طبيعي من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها في الطور الأدبي الحالي الذي توجد فيه تلك البلاد الآن.

ولا يشك أحد في أنه مع مرور الزمن وانتشار المعارف، وتحسين طرق التربية في طبقات الأمة، عاليها ودانيها، تتهذب النفوس شيئا فشيئا، وتقرب من الكمال الذي هو ضالتها.

غير أنه لا يفوت القارئ أن هذا الفساد الذي ذكرناه في الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التي هي الركن الأقوى لبناء الأمم، وما يتبع تلك الفضائل من بذل الأنفس والأموال في سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه، فأدنى رجل في الغرب كأعلى رجل فيه إذا دعا داع إلى هجوم أو قيام لدفاع، أو إلى عمل نافع، يترك جميع لذائذه وينساها، وينهض لإجابة الداعي ويخاطر بنفسه ويبذل ماله

إلى أن يتم للأمة ما تريد، فأين حال هاتين الطبقتين من هـذه الفضائل الجليلة في الأمم الغربية من حالة الأمم الشرقية؟

وأما الطبقة الوسطى فلا ريب أنها أرقى مـن التـي تقابلها عندنا، نحن في الحقيقة لا نعرف من أحوال الغربيين إلا بعض ما ظهر منا، والكثير منا لا تزيد معرفته على مـا عرف منها في الشوارع والقهاوي، وما قـرأه فـي بعـض القصص والحكايات، وليس من الحق ولا من العدل أن نظن هذه الظواهر هي صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الأدب.

من أراد أن يكون حكمه فيهم صحيحا، فعليه أن يلـم بجميع مظاهر حياة تلك الأمم ويقف على جميع الإحساسـات والعواطف التي تحرك نفوسهم، وهذا أمر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم وأخلاقهم، فإذا تمت للباحث هـذه الشروط أمكنه أن يعرف لم يهب رجل ألماني حياته ويتـرك زوجته وأولاده مساعدة لأمة البوير؟

ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيـب العـيش ولذائـذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسألة أو كشف غامضة أو فهم علة؟ وكيف أن سياسيا واسع الثروة عالي المقام يفني زمنـه في تدبير الوسائل لإعلاء شأن أمته، وربما حرم نفسه راحة

النوم من ذلك السبيل؟ وما هو المحرك للسائح الذي يقضـي الشهور والسنين بعيدا عن أهله وبلاده؛ لكشف منـابع النيـل مثلا؟ وما هو الإحساس الذي يرضي القسيس بالمعيشة بـين المتوحشين مع ما يتكبده من أنواع العذاب، وما يحيط به من الأخطار؟ وما هذا الوجدان الذي يسوق الغني إلى أن يبـذل آلافا من الجنيهات لجمعية من الجمعيات الخيريـة أو لعمـل يعود نفعه على أمته أو على الإنسانية؟

إذا علم السر في هذه الصفات ومصادر هذه الأعمـال الجليلة، ثم علم ما بين أعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة، ونظر إلى ما في معاملاتهم من الصدق في القـول والغيرة على الحق ونمو إحساس الشرف والميل إلى مساعدة الضعيف والفقير، والرأفة بالحيوان، فلا شك أنه ينتهي مـن هذا العلم بنتيجة صحيحة، وهي أن هؤلاء القوم على جانـب عظيم من الأدب والفضيلة؛ لأن هذه الأعمال والأحوال تـدل على ضعف سلطان حب النفس، كما تدل على نمو الإحساس بحاجة كل من أفراد الأمة إلى الآخر، والترقي الأدبي إنمـا هو التضامن بعينه.

وليس هذا بغريب، فإن التقدم في العلوم يـؤدي إلـى التقدم في الآداب والأخلاق، لا ريـب أن الارتقـاء العقلـي يصحبه الارتقاء الأدبي دائما، فإن العلم هو المادة التي يتغذى منها الأدب، لا أقول: إنه لا يوجـد الأدب إلا حيـث يوجـد العلم، وإنما أقول: إن أدب الجاهل لا يمكن أن يكون ثابتا في نفسه مثل ثبات الأدب في نفس العالم، العلم يخاطـب العقـل والحقائق العلمية لا تطلب أن يسلم بها من غير مناقشة، بـل تحتاج إلي بحث وتعب وشغل، والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط النفس، الذي هـو أهـم أركـان الأدب، فإن هم شخص أشربت نفسه العلم أن يعمـل أمـرا مخالفا للآداب نزع منه نازع إلى النظر فـي ذلـك الأمـر، وآثاره ومزاياه ومضاره، ثم رجع إلى نفسه ليعلم هـل هـو يصح لها أو لا يصح؟ ويندر حينئذ أن يقدم عليه.

أما الجاهل فإن كان فاضلا لم تكن الفضـيلة فيـه إلا عادة مجردة، وهو مستعد للإذعان إلى ما يتأثر به، حسنا أو قبيحا، ومائل إلى قبول ما يرى أغلب النـاس عليـه بـدون بحث، فإذا انقطعت العادة مرة، وذاق لذة الرذيلة، انفلت قياد

نفسه من يده، واستحال عليه أن يرجع إلى ما كان عليه مـن قبل.

رأينا أن العلم يقوي حكم العقل ويهذب النفس، وأضيف على ذلك أنه يعظم الإحساس الديني، وليس في ذكـر هـذه العبارة خروج عن الموضوع؛ لأن الدين والأدب يرجعان في الحقيقة إلى شيء واحد.

وأجمل ما قيل في هذا المعنى ما أتى بـه الفيلسـوف (سبنسر) في كتابه الذي كتبه في التربية اقتطف منـه هنـا بعض ما يليق بالمقام قال.

"ليس العلم منافيا للإحساس الديني، كما يزعم كثير من الناس، بل ترك العلم هو المنافي للدين، ولنضرب لذلك مثلا فنفرض أن عالما من كبار المؤلفين يصنف الكتـب ويقـرر الحقائق، والناس يثنون عليه ويطلقون ألسنتهم بمدحه، ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه إلا أغلفتها، ولم يقرءوا شيئا منهـا، ولم يجهدوا أنفسهم يوما في فهم ما احتوت عليه، فماذا تكون قيمة هذه المدح في نظرنا؟ وما الذي نعتقده في صدق هؤلاء المادحين إن جاز لنا أن نقيس عظائم الأشـياء بصـغارها؟ نقول: إن الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة! وأدهى

ما يأتون من تلك المعاملة أنهم لا يكتفون بأن يعيشوا ويموتوا وهم لا يعرفون حقيقة من حقائق تلك الأشياء التـي ينـادون بأنها من أبداع البدائع وأغرب الغرائب، بل ينحون باللائمـة على من يشتغل بفهم حقائقها، والوقوف على ما أودع فيهـا من الأسرار، ولو فقهوا لعلموا أن إهمال العلم هو الضـعف للإحساس الديني، بل الماحق له.

أما خدمة العلم فهي عبادة يؤديها القلب؛ لأن خدمـة العلم في اعتراف ضمني بأن للمخلوقات قيمـة عاليـة، وأن الذي أوجدها له شأن أعلى ومقام أسمى. خدمة العلـم هـي احترام للكون وصانعه يؤديه طالب العلم، لا بمجـرد الفـم واللسان ولكن ببذل وقته وفكره وعمله".

نستنتج مما سبق أن تقدم الغربيين في العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيتهم في الأدب، وأن تأخر المعارف عندنا كان سببا في انحطاط أدبنا.

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجرى فيها بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجته مما لا يحتـاج بيانـه إلـى تفصيل. وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيهـا مـن الحسـد والتباغض والخيانة والمنازعات والجرائم والبهيميـة التـي

يحار العقل فيها، وهذه حوادث الوطن وما يرى في روابط أهله من الانحلال، وتفرقهم في الرأي في أحقر الشئون وحرصهم على المال ألا ينفقوه في سبيل أية منفعة من المنافع العامة، وضنهم بشيء من أوقاتهم للفكر في أية مصلحة من مصالح بلادهم، كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا، وما يكون عندنا من محاسن الأخلاق، كالكرم المعهود في كثير من بلاد الأرياف، يرجع في الحقيقة إلى عيب من العيوب كالتنافس في حب الشهرة؛ ولهذا ترى الكثير من أعيان البلاد، المشهورين بإكرام الضيف والمبالغة في الاحتفال به، يسيرون في سائر شئونهم على خلاف مقتضى الكرم؛ فيظلمون الفقير ويطمعون في أموال الضعفاء في أقاربهم، وخصوصا النساء منهم، ويضيقون على عائلاتهم في المعيشة، ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة.

وحال الأمة التركية لا يختلف في ذلك عن حالنا، نعم، في بعض بلاد الريف هناك رقي في الأدب والأخلاق، وامتياز لها على الأخلاق والآداب المصرية، ولكن لا سبب لذلك ألا أن التركي يعيش في قريته بغاية السذاجة، وعلى

ضرب من سعة العيش، فلا يجد ما يحمله على ارتكاب مـا يخالف الآداب الحسنة، وهو بعيد عن كثير من الرذائل؛ لأنه يجهلها ولا يتصور وجودها، فإذا فارق قريته وسكن مدينـة من المدن رأيته لا يجاريه أحد في مسابقة أهلها إلى مراتـع اللذات ومسارح الشهوات، وفاق أمثاله في جميـع العيـون الأخرى!

بالجملة نقول: إن التمدن الأوربي ليس خيرا محضـا، فإن الخير المحض ليس موجودا في عالمنا هذا؛ لأنه عـالم النقص، وإنما هو الخير الذي أمكن للإنسان أن يصـل إليـه الآن. فقد أتم به شيئا مما كان ينقصه، وارتقى به درجة مـن الكمال.

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة، في جانب ما ينتظر للنفس الإنسانية من الكمال، فإنه ينبغي لنا أن نقنع بها، وعلى المستقبل أن يصل بأهله إلى ما هو أعلى منها.

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا أن الترقي يحصل في بعض شئون الأمة، ولا يؤثر في سـائرها، والصـواب أن الترقي لا يكون ترقيا صحيحا إلا إذا وجد منه روح تظهـر في جميع شئون الأمة، جزئياتها وكلياتها، حتى إذا شاء باحث

أن يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقي تظهر في المسكن والمطعم والملبس والمباني والطرق والجمعيات والأفراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية، والتياترات والملاهي، كما تظهر في الصنائع والتجارة والزراعة والعلوم والفنون، وعلى الجملة يجد أثرا للترقي في جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية.

ذلك لأن الحالة العقلية والحالة الأدبية متلازمتان تلازما تاما بل هما في الحقيقة حالة واحدة، وإنما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التي ينظر منها إليها، فإن كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جيدة، ثم هو بهذه الإفادة نفسها يدخل في نظم سلوكنا، ولو كان العلم مقصورا على المعرفة فقط وليس له أثر في العمل لفقد معظم أهميته إلّم نقل كلها.

وأما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا، وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهن مع الرجال، وتمتعهن بالحرية، واحترام الرجال لهن، فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم.

نعم، يعد الكثير منا هذه العـادات عيوبـا، ولكـن إذا سئلت: لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة؟

لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عـن يمينـه ويحب أن تكون نبيهة متعلمة؟

لماذا يسمح لها أن تخرج متى شاءت وتسافر وتخـالط الرجال والنساء؟

لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام؟

فجواب الواحد منا لا يكون إلا أن هذه هـي عـادتهم السيئة. ولكن هذا الجواب لا يفيد شيئا؛ لأنه يستدعي سـؤالا آخر، وهو: لماذا كانت هذه العادة؟

وهنا يتيسر له الجواب.

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات أمة متوحشـة لسهل علينا أن نقول: إن هذه العادة طـرأت عليهـا بحكـم الحوادث، وتلك الأمة تعمل تحت سلطانها بـدون أن تفكـر فيها، وهي تجهل أصلها وارتباطها بأحوالها كما تجهل الأثر الذي ينشأ عنها في شئونها.

ولكن مما لا يسلمه العقل أن أهـل أوربـا وأمريكـا يسيرون على هذه العادة من غير شـعور مـنهم بأسـبابها

ونتائجها، ويصعب على العقل أن يظن أن علماءهم الذين يجهدون أنفسهم كل يوم في اكتشاف أسرار الطبيعة، وأن هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبينوا أنواعها ووصفوها بأدق أوصافها وربوها واستولدوها، غفلوا عن هذه العادة وأهملوها.

والحقيقة أنهم درسوها درسا تاما، كغيرها من المسائل الأخرى وقارنوا بينها وبين عاداتنا الشرقية، ولا أعلم أن واحدا منهم قام ينادي قومه يوما ويحثهم على تغييرها، بل الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق. وأن عدم الحجاب هو السر في تقدم الغرب، وإنما الخلاف يوجد بينهم في تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه.

هذا الإجماع أمر جدير بأن يستوقف نظرنا. وجد بين الغربيين رجال يرون أن الملكية الخاصة هي سرقة، وأن الأموال يجب أن تكون ملكا شائعا بين جميع أفراد الأمة. وظهر فيهم من يقول بإلغاء نظام الزواج؛ حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لنظام، ولا يحددها قانون، وخرج منهم طائفة تنادي بهدم كل نظام

وشرع. ولا تعترف الحكومة مهما كان شكلها بحق الوجود، ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم أن يطلب حجاب النساء. بل ترى الأمر بالعكس، فإن المتطرفين من أرباب المذاهب يطلبون التوسع في حرية المرأة والزيادة في حقوقها إلى أن تصير مساوية للرجل، فهم على شططهم متفقون في ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة.

فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه؟

لأن الأوربيين لا يحبون التغيير في عاداتهم؟ كلا. فإن التغيير عندهم هو قانون تقدمهم، ومن ألقى نظرة عامة في تاريخهم من قرن واحد يجد أنهم غيروا كل شيء عندهم، غيروا حكومتهم ولغتهم علومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم، وأن كل ما وصت إليه هذه الأمور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت إلى آخر.

كذلك لا يصح أن يكون من أسباب هذا الاتفاق ما يقال من أن الأوربيين لا يقدرون شرف النفس حق قدره ولا يغارون على نسائهم، هذا القول الذي سمعته من كثير من الناس لا يمكن أن يصدر إلا من قليل الخبرة، ناقص

المعرفة، لم يقف على شيء من أحوال سكان تلك البلاد، فهو لا يدري منها أكثر ما يدريه من أحوالنا سائح غربي يـدور في (الأزبكية) وما جاورها، ويكتب من عوائدنا ما يراه مـن الطائفين حول تلك الأماكن المشهورة. إذن فما هو السبب؟

السبب هو أن مسألة حقوق المرأة وحريتها ليست فـي الحقيقة مجرد عادة، نرى الغربي يرفع قبعته إذا أراد التحية، والشرقي يحرك يده ويضعها على رأسه، فهذه عـادة مـن العادات يمكن أن يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغـرب، ولكن أهميتها لا تتعدى الموضوع الصغير الـذي وضـعت لأجله، ولا يمكن أن يترتب عليها نتيجة في الحياة الشخصية أو العامة، أما كون المرأة تتعلم أو لا تتعلم، وتعيش مسجونة في البيـت أو متمتعـة بحريتهـا، وتخـالط الرجـال أو لا تخالطهن، وما هي حقوقها في الزواج والطلاق، وماذا يكون شأنها في العائلة وفي الأمة؟ فهذه أولا مسألة اجتماعية، فهي بذلك مسألة علمية، ولا غرابة بعد ذلك في حصول الاتفـاق فيها.

لهذا يلزمنا بدل أن نهزأ بـالغربيين ونحكـم علـيهم بمقتضى قاعدة تخيلناها، وهي أنهم ضلوا عن الحـق فيمـا

يختص بشأن النساء عندهم، يلزمنا بدل ذلك أن نقـف علـى أفكارهم في هذه المسألة، ونبحث في آرائهم وفـي أسـباب النهضة العظيمة التي قام بها الرجال والنساء في هذا القرن، وندرس جميع نتائجها الحالية، وبعد ذلك يمكـن أن نكـون لأنفسنا رأيا صحيحا مؤسسا على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيدا بالتجارب والوقائع.

***

خاتمة

حالة الأفكار الآن

في مصر بالنسبة للنساء

ابتدأ المصريون في هذه السنين الأخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية، وبدت عليهم علامات التألم منها، وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها وصلت إليهم أخبار الغربيين واختلطوا وعاشروا الكثير منهم، وعرفوا مبلغ تقدمهم، رأوا أنهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التي وجدوا أنفسهم محرومين منها، والتي لا قيمة للحياة بدونها، أنبعث فيهم الشوق إلى مجاراتهم، والرغبة في الحصول على تلك النعم، وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التي اعتقدوا أنها تهدي الأمة إلى طريق النجاح، هذا يدعو إلى العمل النشاط، وذاك إلى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ أسباب الشقاق، وآخر إلى حب الوطن والتفاني في خدمته، وغيره إلى التمسك بأحكام الدين، وهلم جرا.

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد، وهو أن هـذه الكلمات ومشاكلها لا يمكن أن يكون لها في حياة الأمة أثـر يذكر إذا وصلت إلى النساء وأدركت معانيها وتعلقت نفوسهن بحبها وتوجهت ميولهن إليها؛ حتى يمكـنهن بعـد ذلـك أن يضعن أولادهن بأحسن الصور التي تمثل كمال الإنسان فـي أذهانهن.

ذلك لأن كل حال اجتماعية لا يمكـن تغييرهـا إلا إذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب، ولأنه لا يكفـي فـي الإصلاح، مهما كان موضوعه، مجرد الحاجة إليه، ولا أمر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه، ولا خطبة تلقـى علـى مسامعهم لترغيبهم فيه، ولا كتب تؤلف في بيان منافعـه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه. فإن هذه الأمور كلها لا أثر لهـا إلا في إرشاد الأمة وتنبيهها إلى سوء حالها، ولكنها ليسـت من الوسائل التي تغيير الأمم وتحولها من حال إلى حال؛ لأن كل تغيير في الأمم إنما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات وأخلاق وعادات لا تتولد في النفوس ولا تـتمكن منهـا إلا بالتربية، أي: بواسطة المرأة.

فإذا أراد المصريون أن يصلحوا أحـوالهم فعلـيهم أن يبتدئوا في الإصلاح من أوله، يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء في أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمـم الراقيـة ومقام في عالم التمدن الإنسـاني قبـل أن تكـون بيـوتهم وعائلاتهم وسطا صالحا لإعداد رجال متصفين بتلك الصفات التي يتوقف عليهـا النجـاح. ولا رجـاء فـي أن البيـوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح إلا إذا تربـت النسـاء وشاركن الرجال في أفكارهم وآمالهم وآلامهم إلّم يشـاركنهم في جميع أعمالهم.

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرهـا النـاس يوم جاهرنا بها في العام الماضي[1] ضـربا مـن الهـذيان، وحكم الفقهاء بأنها خرق في الإسلام، وعـدها الكثيـر مـن متخرجي المدارس مبالغة في تقليد الغـربيين، بـل انتهـى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين، وأوهمـوا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أمـاني الأمـم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامي ضدها من المسـلمين

[1] أي: عند صدور كتاب (تحرير المرأة).

فليس منهم. غير ذلك من الأوهام التي يصغي إليها البسـطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم إدراكهم منافعهم الحقيقية.

ونحن لا نريد أن نرد عليهم إلا بكلمة واحدة وهي: أن الأوربيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا، فما علـيهم إلا أن يتركونا لأنفسنا، فإنهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينـا من حالتنا الحاضرة.

هذا هو الحق الذي لا ريب فيه، ومهما اجتهد قوم في إخفائه وغفل آخرون عنه فلا بد أن ينجلي للكل، عـاجلا أو آجلا، شأن الحقيقة في جميع الأزمان.

وكل ناظر في أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها ما يدل على أن النساء عندنا قطعن طور الاستعباد، ولم يبق بينهن وبين الحرية إلا حجاب رقيق، إذا يرى:

أولا: شعورا جديدا عند المصريين بالحاجة إلى تربيـة بناتهم بعد أن كانوا لا يعلمونهن شيئا.

ثانيا : تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا إلى التلاشي.

ثالثا : تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحاليـة، وتمنيهم تغييرها بمـا يمكـنهم مـن معرفـة المخطوبة.

رابعا: اهتمام الحكومة وبعـض أبنـاء الـبلاد، وفـي مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمـد عبـده مفتي الـديار المصـرية بإصـلاح المحـاكم الشرعية. وكل من اطلع على التقرير الجليـل الذي وضعه فضيلته بشأن تلك المحـاكم يجـد أمورا كثيرة تأتي بإصلاح كبير في العـائلات المصرية، وأخص بالذكر منها ما أتى به عنـد الكلام على تعدد الزوجات حيث قال:

"هذا وإني أرفع صوتي بالشكوى من كثرة ما يجمـع الفقراء من الزوجات في عصمة واحدة، فإن الكثيـر مـنهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان، وهو لا يستطيع الإنفاق عليهن، ولا يزال معهن في نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية، ثم إنه لا يطلقهن ولا واحدة منهن، ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفي أولادهن، ولا يمكن له ولا لهـن أن يقيموا حدود الله، وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد"[1].

---

[1] انظر تقرير إصلاح المحاكم للإمام محمد عبده في الجزء الثاني من أعماله الكاملة التي حققناها. ص ٢١ وما بعدها. طبعة بيروت سـنة ١٩٧٢. المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر.

أحد، وقد حدث في هذا العام أن كثيـرا مـن النسـاء اللواتي حكم على أزواجهن بالأشغال الشاقة مؤبدا أو بالسجن المؤبد، أو بالحبس مدة طويلة تشكون إلى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة؛ حيث لا سبيل لهـن مـن الانفصـال مـن أزواجهن، ولا يوجد لهن عائـل يقـوم بنفقـاتهن ومعـاش أولادهن، فاضطرت نظارة الحقانية إلى استفتاء حضره مفتي الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التي يمكـن اتخاذهـا لإزالة أسباب الشكوى، فبحث حضرته في هذه المسألة وفـي مسائل أخرى تشابهها، واستنتج من فقه المالكية إحدى عشرة مادة، وقدمها إلى نظارة الحقانية، وإليك بيانها ننشرها إفـادة للقراء[1].

المادة الأولى:

إذا امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته، فإن كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة في ماله، فإن لم يكن له مال ظاهر وأصر على عدم الإنفاق طلق عليه القاضي في الحال، وإن ادعى العجز، فإن لم يثبته طلق عليه حـالا، وإن أثبـت

[1] انظر النص الكامل لهذه الفتوى في الجزء السادس من الأعمال الكاملـة للإمـام محمد عبده التي حققناها. ص ٣٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

الإعسار أمهله مدة لا تزيد على شهر، فإن لم ينفق طلق عليه بعد ذلك.

المادة الثانية:

إن كان الزوج مريضا أو مسجونا وامتنع عن الإنفاق على زوجته أمهله القاضي مـدة يرجـى فيهـا الشـفاء أو الخلاص في السجن، فإن طالت مدة المرض أو السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضي.

المادة الثالثة:

إذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضي له أجلا، فإلم يرسل ما تنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للإنفاق عليها طلق عليه القاضـي بعـد مضي الأجل، فإن كان بعد الغيبة أو كان مجهـول المحـل وثبت أنه لا مال له تنفق منه الزوجة، طلق عليه القاضي.

المادة الرابعة:

إذا كان للزوج الغائب مال أو دين في ذمة أو وديعـة في يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين. ولها أن تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة، ويقضي بطلبها بلا كفيل، وذلك بعد أن تحلف أنها مسـتحقة

للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالا ولم يقم عنه وكـيلا في الإنفاق عليها.

المادة الخامسة:

تطليق القاضي لعدم الإنفاق يقع رجعيا، وللـزوج أن يراجع زوجته إذا أثبت يساره واستعد للإنفاق في أثناء العدة، فإن لم يثبت يساره أو لم يستعد للإنفاق لم تصح الرجعة.

المادة السادسة:

من فقد في بلاد المسلمين وانقطع خبره عـن زوجتـه كان لها أن ترفع الأمر إلى نظارة الحقانية، مع بيان الجهـة التي تعرف أو تظن أنه سار إليها، أو يمكن أن يوجد فيهـا، وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنـه فـي مظنـات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس، وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين، فإذا انتهت تعتد الزوجـة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة إلى قضاء، ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره.

المادة السابعة:

إذا جاء المفقود أو تبين أنه حي، وكان ذلك قبل تمتـع الزوج الثاني بها غير عالم بحياته، كانت الزوجة للمفقود ولو

بعد العقد مطلقا أو بعد التمتع في حال ما لو كان الزوج الثاني عالما بحياة المفقود فان ظهر أن المفقود مات في العدة أو بعدها قبل العقد على الزواج الثاني أو بعده ورثته ما لم يكن تمتع بها الثاني غير عالم بحياة الأول، فإن مات بعد تمتعه وهو عالم بحياة الزوج الأول لم ترث.

المادة الثامنة:

من فقد في معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض، وثبت أنه حضر القتال، جاز لزوجته أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية، وبعد البحث عنه وعدم العثور عليه تعتد الزوجة. ولها أن تتزوج بعد العدة، ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره، فإن لم يثبت إلا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه ما في المادتين السابقتين.

المادة التاسعة:

لزوجة المفقود في حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة، فإذا انقضت اعتدت، وحل لها الزواج بعد العدة، ويورث ماله بعد انقضاء السنة.

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود إذا كان في ماله ما تنفق منه الزوجة، أو لم تخش على نفسها الفتنة وإلا رفعت الأمر إلى القاضي ليطلق عليه متى ثبت لـه صـحة دعواها.

المادة العاشرة:

إذا اشتد النزاع بين الزوجين، ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها في كتـاب الله تعـالى، رفع الأمر إلى قاضي المركز، وعليه عنـد ذلـك أن يعـين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثاني من أقـارب الزوجة، والأفضل أن يكون جارين، فإن تعذر العدول مـن الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب، وأن يبعـث بهمـا إلـى الزوجين، فإن أصلحاهما فبها، وإلا حكما بـالطلاق ورفعـا الأمر إليه، وعليه أن يقضي بما حكما به، ويقع التطليق فـي هذه الحالة طلقة واحدة بائنة، ولا يجوز للحكمـين الزيـادة عليهما.

المادة الإحدى عشرة:

للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر، والضرر هو ما لا يجـوز شـرعا،

كالهجر بغير سبب شرعي، والضرب والسب بدون سـبب شرعي، وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية.

وقد وافق على هذه المشروع حضرة شـيخ الجـامع الأزهر – حيث أرسل إلى حضرة المفتي الجواب الآتي:

"حضرة الأستاذ صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية أيده الله".

باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المـؤرخ ٤ الجـاري نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل علـى إحـدى عشرة مادة مستخلصة من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، المطلوب إبداء رأينا فيه. قد رأينا ما رأيتموه، ووقعنا عليـه بالموافقة، وشكرنا همتكم العالية على اعتناء فضيلتكم بهـذا الخطاب الجليل وطيه المشروع المذكور يا أفندم.

الفقير سليم البشري، المالكي خـادم العلـم والفقـراء بالأزهر ٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨[1].

هاتان المسألتان: مسألة تعداد الزوجات، ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق. هما من أهم المسائل التي استلفتنا إليهـا الأنظار في كتاب (تحرير المرأة) ويسرنا أن عالما عظيمـا

---

[1] الموافقة لسنة ١٩٠٠م.

وفقيها حكيما مثل حضرة الأستاذ الشيخ محمـد عبـده رأى أنهما جديرتان بهمته، فأيد بصوته المسـموع مـا اقترحنـاه فيهما.

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ في البيوت كل يوم تنبئنا بأن حالة المرأة المصـرية آخـذة فـي التحسـن والترقي.

غير أن هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية، بـل حدثت فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين، وبمقتضـى حكـم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعي القاضي بـأن كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذي يعيش فيـه. والـدليل على أن لا دخل لإرادتنا في هذه الحركة أننـا عنـدما قلنـا بوجوب المحافظة عليها، وإعدادها حتى نبلغ منهـا الغايـة لاقينا معارضة شديدة، حتى ممن ظهرت مبادئ هذا التحول في نفوسهم وبدت بوادره في بيوتهم.

ولا عجب في ذلك، فإن شأننا أن نتبع أهواءنـا فـي جميع أعمالنا.

وقد أظلنا الوقت الذي يجب فيه أن نعرف ماذا نريد؟

إن كان مقصدنا من الحياة أن يعيش كل منا بضع سنين يقضيها في أي حال كانت، واستوى لدينا العز والذل. والغنى والفقر، والحرية الرق، والعلم والجهل، والفضيلة والرذيلة. فأرى أن ما منح إلى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لا داعي له. ولا أجد مانعا من أن يتمتع الرجل بعدة نساء، ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها في اليوم التالي ويسجن زوجاته وبناته وأخواته وأمه وجدته إذا شاء!

يوجد في أفريقيا وآسيا أمم عديدة تعيش النساء فيها مدفونات في البيوت بحيث لا يرين إنسانا ولا يراهن أحد. ويوجد بين هذه الأمم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة إلى حد أنه متى توفي زوجها وجب عليها أن تعدم نفسها؛ لكيلا تتمتع بالحياة بعده! فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى هؤلاء الأمم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم في الجهل والاحتجاب، لعلنا نجد عندهم ما يقوي حجتنا في تشديد الحجاب والحجر على المرأة!

أما إذا كان المقصد هو ما نقرؤه ونسمعه كل يوم من أن المصريين يريدون أن يكونوا أمة حية راقية متمدنة فلنا أن نقول لهم:

" توجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التي تشتكون منها، وتصعد بكم إلى أعلى مراتب المدن، كما تشتهون وفوق ما تشتهون، ألا وهي تحرير نسائكم من قيود الجهل والحجاب، هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها، وليس لنا فضل في اختراعها؛ فقد استعملتها أمم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها. انظروا إلى الأمم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة. تجدوا أن تربية المرأة الأمريكية وأخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية وأخلاق وآداب المرأة الفرنساوية، وأن هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية، وأن المرأة الطليانية لا تشبه في شيء من ذلك المرأة السويدية ولا الألمانية، ولكن هؤلاء النساء على اختلاف الإقليم والجنس واللغة والدين بينهن اتحدن، واجتمعن في أمر واحد وهو أنهن يملكن حريتهن ويتمتعن باستقلالهن.

هذه الحرية هي التي أخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم، فكما أضيف عليها التعليم وجهت إرادتها إلى أن تشترك مع الرجال في تقدم الجمعية التي تنسب إليها، وتم هذا الاشتراك بإتيانها أعمالا مفيدة تختلف بلا ريب عن أعمال الرجال، ولكن لا تنقص عنها في الأهمية فالتاجر الذي

يقضي نهاره في حانوت لبيع بضاعته، والكاتب الذي يمضي بضع ساعات في ديوان من دواوين الحكومة يشـتغل فيـه بتحرير إفادة إلى مصلحة أخرى. والمهنـدس الـذي يبنـي قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد. والطبيب الذي يقطـع عضوا ليحيى باقي أعضاء الجسم، والقاضي الذي يفصل في المنازعات التي تقوم بين الناس، جميع هـؤلاء وغيـرهم لا يوجد منهم واحد يحق له أن يدعي أن عملـه يفيـد الهيئـة الاجتماعية أكثر من عمل امرأة تهدي إلى الجمعيـة رجـلا وتربيه على أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته.

نحن لا نقول لكم كما يقول غيرنا: اتحدوا، كونوا عون بعضكم لبعض، أو طهروا أنفسكم من العيوب التي تعهدونها في أخلاقكم. أو اخدموا أهلكم ووطنكم، أو ما يماثل ذلك من الكلام الذي يذهب في الهواء.

نحن نعلم أن تغيير النفوس لا تنفع فيه نصيحة مرشـد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى. وإنما يتم. كما ذكرنا، بإعداد نفوس الناشئين إلـى الحـال المطلـوب إحداثها.

ذلك هو السـير الطبيعـي البعيـد الأمـد المحفـوف بمصاعب. ولكن أسهل المصاعب هي التي تنتهـي بـالفوز والنجاح.

وأقرب الطرق هي التي توصل إلى المقصد.

****

(انتهى الكتاب والحمد لله)